نساء على عرش مصر

تأليف

أ.د/ ممدوح محمد الدماطي

الأستاذ بكلية الآثار - جامعة عين شمس

ووزير الآثار سابقًا

إشراف وتقديم

أ. د/ محمـد مختار جمعة

وزير الأوقاف

١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة

د. هيثم الحاج علي

نساء على عرش مصر

إشراف وتقديم

أ.د/ محمد مختار جمعة

الطبعة الأولى

للهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٢١.

ص.ب ٢٣٥ رمسيس
١١٩٤ كورنيش النيل ـ رملة بولاق القاهرة
الرمز البريدي : ١١٧٩٤
تليفون : ٢٥٧٧٧٥١٠٩ (٢٠٢) داخلي ١٤٩
فاكس: ٢٥٧٦٤٢٧٦ (٢٠٢)

الطباعة والتنفيذ
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة، بل تعبر عن رأي المؤلف وتوجهه في المقام الأول.

حقوق الطبع والنشر محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب.
يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابي من الهيئة المصرية العامة للكتاب، أو بالإشارة إلى المصدر.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا
تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

(هود: ٨٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـديـم

الحمـد لله رب العالمـين، والصـلاة والسـلام عـلى خاتم أنبيائـه ورسـله سـيدنا محمـد ﷺ وعـلى آله وصحبـه وعلى رسـل الله أجمعين.

وبعد:

فـلا شـك أن الوطـن في حاجـة إلى جهـود كل أبنائـه وأطيافـه، رجـالًا ونسـاءً، شـيوخًا وشـبابًا، في تكامـل وتنسـيق، كلٌ يـدلي بدلـوه ويـضرب بسـهمه في خدمـة الوطـن وقضايـاه، غير متجاهـل لغيره أو مقلـل من جهده وعطائـه، مهما كانت درجـة هذا الجهد، فالقليـل إلى القليل كثـير، ولا غنـى عـن طاقـة الشـباب كـما أنـه لا غنـى عـن خـبرة الشـيوخ، ولا غنـى عـن جهـود المـرأة ومشـاركتها الإيجابيـة وتفانيهـا في خدمـة وطنهـا كـما أنـه لا غنـى عـن

عطـاء الرجـل وتفانيه في خدمـة وطنه، وقد عـرف التاريخ الإسـلامي والتاريـخ الإنسـاني شـخصيات نسـائية كان لهـا دورهـا البـارز ليـس في محيطهـا الجغـرافي أو الزمنـي فحسـب، وإنـما كانت ذات تأثـير كبير في تاريخ الإنسـانية.

فحين يحدثنا القرآن الكريم عن مريم ابنة عمران عليها السلام، أو عن آسية امرأة فرعون، أو عن ملكة سبأ، نجد أننا أمام نساء كان لهن دور بارز في التاريخ الإنساني، وكذلك عندما نقرأ في سير زوجات النبي صلى الله عليه وسلم من أمثال السيدة خديجة رضي الله عنها والسيدة عائشة رضي الله عنها والسيدة حفصة بنت عمر رضي الله عنهما وسائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، أو نقرأ قصص بعض الصحابيات أو التابعيات أو من كان لهن دور عبر الكفاح الوطني في مصر أو غيرها من دول العالم، نجد أننا أمام نماذج عظيمة من السيدات الفضليات.

ولا شك أننا عندما نتحدث عن فرض الكفاية الوطني أو فرض الكفاية المهني؛ فإننا لا يمكن أن نقصر ذلك على الرجال دون النساء، فدور النساء في العمل الوطني والخيري والتطوعي قد يسبق عمل الرجال، فالطبيبات إلى

جانب الأطباء، والمعلمات إلى جانب المعلمين، والمهندسات إلى جانب المهندسين، والفنيات إلى جانب الفنيين، يكمل بعضهم بعضًا في أداء الرسالة والواجب الوطني والمهني، إضافة إلى العاملات اللائي يقفن إلى جوار أزواجهن في المصانع والمعامل والحقول، مما يجعلنا نؤكد أن المرأة تسهم إسهامًا جيدًا في مختلف جوانب الحياة العامة .

وعندما تحدث القرآن الكريم عن طرفي المعادلة في الجنس البشري وهما الرجل والمرأة قال الحق ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[1]، وقال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[2] وقال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[3]، فالرجل والمرأة من نفس واحدة في الخلقة، وكل منهما

(١) [سورة النساء، الآية ١].
(٢) [سورة الأعراف، الآية ١٨٩].
(٣) [سورة الأنعام، الآية ٩٨].

زوج لصاحبه ومكمل له؛ حيث يقول الحق ﷻ: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[1]، ويقول ﷻ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[2]، ويقول ﷻ: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾[3]، ويقول نبينا ﷺ في خطبته الجامعة في حجة الوداع: « **ألا إن لكم على نسائكم حقًّا، ولنسائكم عليكم حقًّا**»، كل ذلك في تكافؤ لغوي يعادل التكافؤ المعنوي المنشود في كل هذه النصوص الكريمة.

ولم يبخس الإسلام أيًّا من الطرفين حقه، فقال ﷻ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾[4]، وقال ﷻ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[5]،

(١) [سورة البقرة، الآية ١٨٧].
(٢) [سورة البقرة، الآية ٢٢٨].
(٣) [سورة النساء، الآية ٣٢].
(٤) [سورة آل عمران، الآية ١٩٥].
(٥) [سورة النحل، الآية ٩٧].

وقال ﷻ: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

وقد عرف التاريخ نساء فضليات كثيرات، ذكر القرآن الكريم عددًا منهن صراحة وأخريات إشارة، بل إنه خص إحداهن وهي السيدة مريم عليها السلام بسورة خاصة من سوره الكريمة، وهي سورة مريم عليها السلام .

وممن ذكرهن القرآن الكريم صراحة أو إشارة من النساء المصريات اللاتي وُلدن أو نشأن أو عِشن وحُينَ على أرض مصر أو قدمن إليها أو مررن بها نذكر هاجر أم إسماعيل، وأم موسى وأخته، وامرأة فرعون، وامرأة العزيز، وأم يوسف زوج سيدنا يعقوب، على الجميع السلام.

فقد تعرضت أمنا هاجر عليها السلام لابتلاءات عظيمة؛ حيث أَمر الله ﷻ سيدنا إبراهيم عليه السلام أن يأخذها وولدها إسماعيل إلى حيث أراد الله إلى مكة المكرمة، إلى واد غير

(١) [سورة غافر، الآية ٤٠].

ذي زرع عند بيت الله الحرام؛ حيث يقول الحق ﷻ على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[1] وهنا يخاطب إبراهيم عليه السلام ربه ﷻ ويدعوه قائلًا: ﴿رَّبَّنَآ﴾ للتأكيد على أن هذه الربوبية تشمل الجميع إبراهيم وهاجر وإسماعيل ومن ترك من ذريته ببلاد الشام والكون كله، فهو سبحانه رب الجميع وكافلهم، ويذكر بعض الرواة وكُتَّاب التاريخ أن سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما أراد الانصراف التفت إلى زوجه هاجر وولده إسماعيل، فقالت هاجر لنبي الله إبراهيم عليه السلام: يا إبراهيم، آلله أمرك بهذا ؟ فقال عليه السلام: نعم، فقالت - عليها وعلى ولدها السلام -: إذن لا يضيعنا .

ثم يأتي سعي هاجر عليها السلام بين الصفا والمروة، طلبًا للماء لها ولولدها، حتى يأتيها الفضل العظيم من رب كريم بفيض زمزم، لتكون بركة لها ولولدها ولأهل حرم الله

(١) [سورة إبراهيم، الآية ٣٧].

الآمـن، وللعالمـين إلى يوم الدين بـإذن الله تعـالى، وليصبح السـعي بـين الصفا والمـروة ركنًا مـن أركان شـعيرة الحج، ورمـزًا للسـعي الجـاد والأخـذ بالأسـباب إلى أن يـرث الله الأرض ومـن عليها .

ومـن يتأمـل رحلـة السـعي هـذه بـين الصفـا والمـروة سـبع مـرات في هـذه المنطقـة بـما كانـت عليهـا مـن طبيعة قاسـية آنـذاك، يـدرك مـدى عزيمـة هـذه المـرأة المصريـة المؤمنـة التـي انقطعـت في هـذه المنطقـة لولدهـا، تقوم على رعايتـه خـير قيـام، راضيـة بقـدر الله لهـا، لا تخشـى هـذه الطبيعـة الصعبـة التي كانـت في ذلك الوقـت جدباء قاحلة موحشـة، إذ كانـت عليها السلام مؤمنـة بـأن ربهـا الـذي اختـار لها ولولدهـا هـذا المـكان كفيل بهما، أمـا كيف ومتـى فلا علم لهـا، غـير أن ثقتهـا في الله لم تقف عند حد، عـلى أنها لم تقف متواكلـة منتظـرة أن تمطـر السـماء لها ذهبًـا أو فضـة، لكنها سـعت، وسـعت وجدت واجتهدت وأخذت بالأسـباب، إلى أن عمهـا خالق الأسـباب والمسـببات بفضلـه وغمرها بكرمـه ورزقـه الواسـع، وجعـل أفئـدة مـن النـاس تهوي إليهـا وإلى ولدهـا في هـذا المـكان المبـارك، وخلـد سـعيها

الميمـون في كتابـه الكريـم وجعلـه أنموذجًا يحتـذى ومَعْلمًا مـن أهم معـالم الحج الجامعـة للبشر على اختلاف ألسـنتهم وألوانهـم لا تكتمـل العبـادة إلا به.

وتأكيـدًا عـلى أنـه لا تـزر وازرة وزر أخـرى، وأن الله لا يضيـع أجـر مـن أحسـن عمـلًا، امتـدح القـرآن الكريم امـرأة فرعـون؛ حيث يقـول الحـق ﷻ في سـورة التحريم: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]، فاسـتجاب الله دعاءهـا، ولم يؤاخذهـا بجريـرة فرعـون وتجـبره، ذلك أن العـدل الإلهـي اقتـضى ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[2]، وأن لـكل نفـس مـا كسـبت وعليهـا مـا اكتسـبت، وأن الإنسـان إذا مـا صلـح مـا بينـه وبـين ربـه لا يـضره ضـلال من ضـل حتـى لـو كان أقرب النـاس إليـه أبًـا أو أخًـا أو ابنًـا أو زوجًا.

(١) [سورة التحريم، الآية ١١].
(٢) [سورة النجم، الآيتان ٣٨، ٣٩].

لقد جند الله ﷻ هذه المرأة العظيمة امرأة فرعون لتحول بين زوجها وحاشيته و قتل موسى عليه السلام حين ألقى اليم الصندوق الذي وضع فيه موسى عليه السلام إلى قصر فرعون، فأرادوا أن يقتلوه، فقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[1].

وارتباطًا بهذا الحديث نقف على ما كان من امرأتين كريمتين عاشتا على أرض مصر، هما أم موسى عليه السلام وأخته، فعندما أخبر أحد الكهنة فرعون أن طفلا يولد من بني إسرائيل تكون نهاية ملكه على يديه، شرع فرعون يقتل أبناءهم الذكور، وفي هذه الفترة العصيبة وضعت أم موسى عليها السلام وليدها، وخشيت أن يأتي زبانية فرعون لقتله، وهنا جاءها الأمر الإلهي: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2]، فصنعت أم موسى الصندوق الخشبي، واستجابت في إيمان كبير لأمر ربها، ووضعت في الصندوق وليدها، وألقته في اليم، وقلبها

(١) [سورة القصص، الآية ٩].

(٢) [سورة القصص، الآية ٧].

البشريّ يكاد ينفطر، وهنا يأتي دور الأخت، ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾[1] أي تتبعي مسيره في الماء، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[2]، فصارت ترقبه على الشاطئ، ولا يغني حذر من قدر، فقد ألقاه اليم إلى حيث كانت أمه تحذر وتخاف، ألقاه إلى قصر فرعون، وتذكر بعض الروايات أن أخته هذه كانت تعمل في قصر فرعون أو لها به صلة ما، وقد أبى الطفل أن يرضع من أية امرأة في القصر، فوقعوا في حيرة العناية به، فقالت أخته: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾[3]، وطمس الله على أفئدة فرعون وحاشيته، فلم يسألوا أخت موسى عن سر ثقتها في أهل هذا البيت، وجاءت البشرى الأولى سريعة غير متوقعة لأم موسى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[4]، ثم تحققت بعد ذلك البشرى الثانية بجعله من المرسلين.

(١) [سورة القصص، الآية ١١].
(٢) [سورة القصص، الآية ١١].
(٣) [سورة القصص، الآية ١٢].
(٤) [سورة القصص، الآية ١٣].

ونستطيع أن نؤكد أن دور المرأة تاريخيًّا وفي مسيرة الإنسانية لم يكن أبدًا هامشيًّا، إنما كان دورًا مُهمًّا وفاعلًا، وفي قصة أم موسى وأخته بدا دورهما في الحفاظ على الأسرة وحمايتها مما يتهددها من تحديات واضحًا بارزًا، مما يؤكد قدرة المرأة على الإسهام في مواجهة المخاطر والتحديات، والحفاظ على بيتها وأسرتها وعرضها وأبنائها، وكذلك الإسهام في نهضة وطنها ورقيه وتقدمه.

وفي هذا الإصدار الذي نقدم له تناول الصديق العزيز الأستاذ الدكتور ممدوح الدماطي، الأستاذ بكلية الآثار جامعة عين شمس ووزير الآثار سابقًا، عددًا من النساء اللاتي تربعن على عرش مصر، مما يدل على عظمة الحضارة المصرية، وإيمانها بالمرأة، وإكرامها لها عبر عصورها التاريخية المختلفة، وهو ما ندعُ القارئ الكريم للتعرف عليه في ثنايا سرد الكاتب وعرضه الشيق.

والله الموفق والمستعان،،،

أ.د/ محمد مختار جمعة مبروك
وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
عضو مجمع البحوث الإسلامية

مُقَدِّمَة

المرأة ومكانتها في مصر القديمة

هـذا الكتيـب مختـصر لكتـاب «ملـكات مـصر» الـذي نشرتـه «الهيئـة المصريـة العامـة للكتـاب» عـام ٢٠١٧م، وأعـادت طبعه عـام ٢٠١٨م، وهو يتناول بعضًا من سـيرة المـرأة المصريـة ومكانتهـا عبر العصـور؛ وبخاصـة في العالم القديـم؛ الـذي سـبقت فيه الأمـم في إظهار مكانـة المرأة في المجتمـع، ووصولهـا إلى سُـدَّة الحكـم في كثـير مـن فـترات التاريـخ المـصري، بـدءًا مـن ملـكات العـصر الفرعـوني، ومُـرورًا بالعصر البطلمـي، وحتى حكم السـلطانة العظيمة «شـجر الـدر»، في نهايـة العـصر الأيـوبي وبدايـة العـصر المملوكي، ويقدم المعلومة بأسـلوب بسـيط، ولا يسـتفيض في المشـكلات التاريخيـة، ويخـرج للقـارئ بأقـرب الآراء المتعـارف عليهـا لـدى المؤرخـين دون إشـغال القـارئ بالنقـاش الأكاديمـي.

لقد تميزت الحضارة المصرية القديمة عن باقي حضارات العالم بتنوع مظاهرها العلمية، والفنية، والأدبية والاجتماعية، والسياسية، وفي هذا التميز والتنوع حظيت المرأة في مصر القديمة بمكانة متميزة لم تحظَ بها امرأة أخرى في شتى المجتمعات والحضارات الإنسانية، وتشهد آثار الحضارة المصرية بذلك من خلال تمثيلها في هيئة مساوية للرجل في تماثيل منفردة، أو مزدوجة، أو تماثيل عائلية، كما تظهر في مناظر ونقوش المقابر بكامل زيها وزينتها إلى جوار الرجل في رحلات الصيد، والولائم، أو في موائد القربان.

نعم.. اهتمت المرأة المصرية بأناقتها وجمالها، وحرصت دائمًا أن تكون في أبهى صورها، فعادة ما كانت تظهر في زيٍّ كتَّانيٍّ أبيض جميل ذي طيَّات أنيقة، وتلبس باروكة شعر، وحليًّا جميلة تتسق مع زيها، بما لا يستطيع المرء معه أن يسمى المرأة المصرية في هذا العصر إلا «سيدة الأناقة»، و«سيدة الجمال».

كما أوضحت الآثار أن المرأة المصرية لم تهتم فقط بأناقتها، بل اهتمت بشتى أنواع المظاهر الحضارية،

فقد اهتمت برشاقتها، ومارست الرياضة، وشاركت في الحفلات الاجتماعية المصحوبة بألوان الرقص والموسيقى والغناء، وغيرها من متطلبات الحياة المتمدنة.

تحدثت نصوص الأدب المصري القديم عن مكانة المرأة؛ ومدى ما حظيت به في المجتمع المصري القديم، فمصر كانت أول من كرم المرأة، وحفظ لها مكانتها، وكان الحكماء في مصر القديمة ينصحون أولادهم، حيث قال أحدهم: «يا ولدى إذا كنت عاقلًا فأسس لنفسك بيتًا، وأحب زوجتك من قلبك، املأ بطنها واكس ظهرها واشرح صدرها، وإياك أن تقسو عليها، فإن القسوة خراب للبيت الذي أسسته، فهو بيت حياتك، لقد اخترتها أمام الله فأنت مسئول عنها أمامه».

وقال «سنب حوتب» لابنه: «إذا أردت رضا الله فأحب شريكة حياتك، اعتن بها تعتن ببيتك وترعاه، قربها من قلبك فقد جعلها الرب توءمًا لروحك، إذا أسعدتها أسعدت بيتك، وإذا أسعدت بيتك أسعدت نفسك، زودها بكسوتها، ووسائل زينتها، وزهورها المفضلة، وعطرها الخاص؛ فكل ذلك سينعكس على

بيتـك، ويعطـر حياتـك، ويضفي عليهـا البهجة، أسـعدها مـا دمـت حيًّـا فهـي هبـة الإلـه الـذي اسـتجاب لدعائك بهـا، فتقديـس النعمـة إرضـاء للـرب».

وكانـت الزوجة سـيدة بيتهـا بما تعنيـه هـذه الكلمة من معنـى؛ وكانـت تلقـب بـ «سـيدة البيت»، وهـو مـا يُظْهِر مكانتهـا في بيـت زوجهـا، وهـو المعنـى الـذي نسـترجعه دائـمًا في يومنـا الحـالي، وندعـو زوجاتنـا «سـت البيت».

وعـن مكانـة الأم فقـد قيـل: «الأم هبـة الإلـه، ضاعِفْ لهـا العطـاء فقـد أعطتـك كل حنانهـا، ضاعـف لهـا الغذاء فقـد غذتـك مـن عصـارة جسـدها، احملها في شـيخوختها فقـد حملتـك في طفولتـك، اذكرهـا دائـمًا في صلاتـك ودعائـك للإلـه العظيم، فكلـما تذكرتها تذكرتـك، وبذلك تـرضي الإلـه؛ فرضـاؤه يـأتي مـن رضائهـا عنك».

وقـال فيهـا الحكيـم «آني»: «لا تنـسَ أمـك ومـا عملته مـن أجلـك، ضاعِفْ لهـا غذاءهـا، احملها كما حملتـك، فإذا نسـيتها نسـيك الإلـه، لقـد حملتـك تسـعة أشـهر، وحينـما وُلِـدَّت حملتـك حـول رقبتهـا وأعطتـك ثديهـا سـنوات لم تشـمئز من قذارتـك...».

أما عن «حقوق المرأة في الزواج والطلاق»: فكان لمصر السبق في تحرير وثائق للزواج والطلاق، وكان العقد في البداية يتم مشافهةً بين كبار أفراد الأسرتين، ثم تطور فيما بعد إلى نص مكتوب، وكان الأهل والأقرباء وأهل القرية يحضرون حفل العُرس، ويُشهد على العقد شهودٌ تسجل أسماؤهم في الوثيقة، ويحرر في العقد تعهدات الزوج، وينص كتابة على قيمة الصداق من أوزان الفضة ومكاييل الغلال، فضلًا عن مؤجل معين يدفعه إذا شب بينه وبين زوجته ما يدعو إلى الانفصال، وهو ما يعرف بالمؤخر في عقودنا الحالية.

وكان للمرأة في المجتمع المصري القديم دورٌ كبيرٌ في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، فقد عملت في وظيفة الكاتب، وهذه الوظيفة قد تؤهل صاحبها إلى مناصب حكومية عالية، كما حصلت على مناصب مهمة في الدولة، فكانت قاضية مثل السيدة «بنِتِ» من الأسرة السادسة، التي لُقِّبَتْ بـ «القاضية» و«وزيرة الملك» وهو من أعلى الألقاب مكانة، وعملت المرأة طبيبة مثل «بسشت» التي كانت من أحسن وأقرب أطباء الملك في الأسرة الرابعة.

ليس هذا فحسب، بل كانت أيضًا سيدة أعمال كالسيدة «ني نفر»، وهي صاحبة أراضٍ شاسعة، وأملاك، وعقارات في عهد الدولة الحديثة، وكان لها وكلاء تجاريون للترويج لمنتجاتها، وكانت تقوم بدفع الضرائب المطلوبة منها.

وبصفة عامة تمتعت المرأة في العصر الفرعوني بالحقوق الاقتصادية كافة التي تكفلها الدولة، مثلها مثل الرجل، كالإعفاءات الضريبية في بعض الأحيان، وتوفير العمالة، وغير ذلك من الحقوق.

كما تمكنت المرأة في مصر القديمة من أن يكون لها دورٌ في الحكم مع زوجها الملك الشرعي أو من خلاله، بل تمكنت من الوصول إلى سدة الحكم، فتُوِّجَت كملكة حاكمة مثل «نيت-إقرت» في نهاية الأسرة السادسة حوالي ٢٢١٨-٢٢١٦ ق.م، و«نفروسوبك» في نهاية الأسرة الثانية عشرة حوالي ١٧٨٥-١٧٨١ ق.م، و«حتشبسوت» من الأسرة الثامنة عشرة حوالي ١٤٧٩-١٤٥٨ ق.م، و«تاوسرت» في نهاية الأسرة التاسعة عشرة حوالي ١١٩٤-١١٨٦ ق.م، و«كليوباترا» في نهاية الأسرة البطلمية حوالي ٥١-٣٠ ق.م.

ثـم يأبـى التاريـخ المـصري إلا أن تكـون هنـاك امـرأة تجلـس عـلى عـرش مـصر في العـصر الإسـلامي وهـي السـلطانة «شـجر الـدر»، التـي حكمـت مـصر في آخـر عـصر الدولـة الأيوبيـة، ويعتبرها كثـير مـن المؤرخين أول سـلاطين المماليـك، لتكـون آخـر سـيدة تحكـم مـصر عـلى مـدار تاريخهـا الطويـل.

شـكل (١): تمثـالان منفردان للأمـير «رع-حوتب» وزوجتـه الأميرة «نفرت» مـن عصر الأسرة الرابعة حـوالي ٢٦٠٠ ق.م

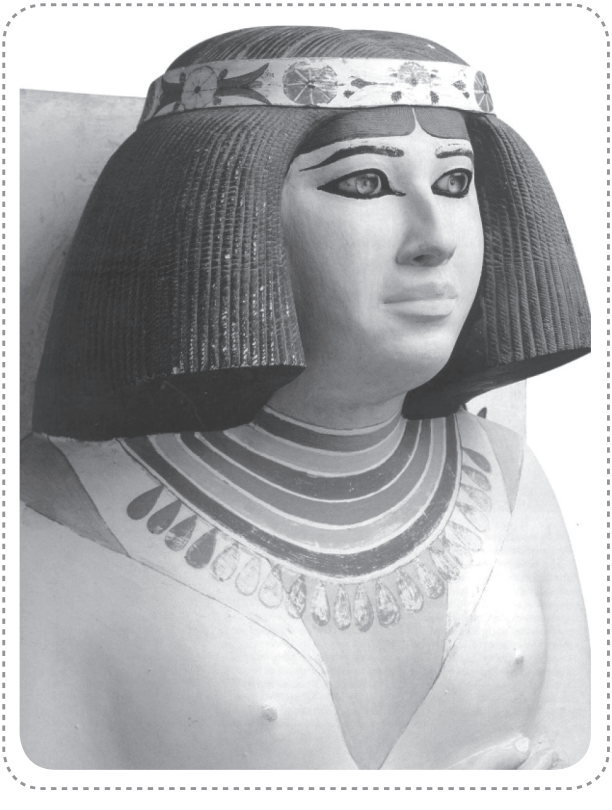

شكل (٢): تفصيل من تمثال الأميرة (نفرت)

شكل (٣): منظر حفل موسيقى ورقص، من مقبرة «نبآمون» من الأسرة الثامنة عشرة حوالي ١٣٥٠ ق.م

شكل(٤): منظر من تابوت الملكة «كاويت» زوجة الملك «منتوحوتب» الثاني من الأسرة الحادية عشرة حوالي ٢٠٢٠ ق.م

ملكات العصر الفرعوني

الملكة «مريت - نيت»

الملكـة «مريـت - نيـت»، والتـي يعنـي اسـمها «محبوبة نيـت»، هي بنـت الملك «جـر»، وزوجة الملـك «واجيت»، وأم الملـك «دن»، امـرأة مـن طـراز فريـد فـما زلنـا في مهـد الحضـارة وأوائـل التاريـخ حيـث تمكنـت مـن حكم مصر بعـد وفاة زوجهـا، مبـاشرة ثم شـاركت ابنها الملـك «دن» في الحكـم - عندمـا ورث عـن أبيـه الحكـم طفـلًا صغيرًا، ويجـب أن يكون تحـت الوصايـة - وهي بذلك أول سـيدة حكمـت في مـصر وفي تاريـخ البشرية، وقـد حكمت مصر قرابـة عـشر سـنين ٢٩٣٩-٢٩٢٩ ق.م.

كانـت «مريـت - نيـت» تقـدر الأمـور، وتعـي الظروف التـي تحيـط بالدولـة في ذاك العهـد البعيـد، فلـم تُمكـن أحدًا من شـئون الحكـم، وقامت هـي بالوصاية عـلى العرش رغم بلـورة الأصـول والتقاليـد الدينيـة المقيدة للحكـم آنذاك.

جلست «مريت - نيت» على عرش مصر كملكة مستقلة بعد وفاة زوجها لفترة قصيرة، ثم بوصفها شريكة في الحكم مع ابنها الملك الطفل «دن»، وما أن مكنت «مريت- نيت» لابنها الملك «دن» الحكم - عندما بلغ أشده؛ وأصبح مؤهلًا ليجلس ملكًا راشدًا على عرش البلاد؛ حيث تمرس على الحكم في ظل حكم أمه وعلى عينها - حتى انسحبت من المشهد السياسي كملكة مشاركة في الحكم صاحبة القرار فيه؛ إلى دور الملكة الأم التي تعضد حكم ابنها، وتقف خلفه بالمشورة والنصيحة، وبالمشاركة في الرأي إن تطلَّب الأمر ذلك، وكان ابنها «دن» بذلك من أسعد الملوك الذين حظوا بدعم أم قادرة ذكية، قامت على تربيته وتنشئته تنشئة تليق بمن سيحكم مصر، فكبر وأصبح أحد أهم ملوك العصر العتيق، وعندما نذكر أعماله فهي لا تخلو من رأي أو مشورة أمه العظيمة الملكة «مريت - نيت»، ولقد أشرف بنفسه على دفنها في قبر لا يليق إلا بملك حاكم عظيم.

وعلى الرغم من أن الملكة «مريت - نيت» لم تلقب باللقب الملكي حفاظًا على حق ابنها في الحكم، واكتفت

بلقب «أم الملك»؛ فإنها تمتعت بجميع مزايا الحكم وصولجانه، وقد أدارت شئون البلاد لابنها الملك الطفل «دن»، وخلا لها الحكم لسنوات عدة قد تصل إلى عشر سنين، تمكنت خلالها من الحفاظ على الدولة وإعداد ابنها للحكم، وتمتعت «مريت - نيت» بفترة حكم هادئة تميزت بالاستقرار والرخاء، بل ووضعت أسس وتقاليد الحكم التي نراها تمثلت في أسلوب حكم ابنها الملك «دن» الذي يُعد من أعظم حكام مصر، والذي أصبح نهجه في الحكم الذي تعلمه من أمه هو نهج حكام مصر فيما بعد وحتى نهاية العصر الفرعوني.

وإن لم يكن من إنجازات للملكة «مريت - نيت» غير إعداد ابنها الملك «دن» للحكم فهو أعظم إنجاز للحضارة المصرية؛ حيث يُعد أحد أعظم ملوك الحضارة المصرية، الذي اهتم بتوسعة الحدود المصرية، وحافظ عليها، وكانت مصر في عهده تتمتع برخاء اقتصادي واستقرار سياسي واجتماعي، كما أنه وضع أسس الحكم الملكي المقدس الذي اتبعه ملوك مصر حتى نهاية العصر الفرعوني.

الملكة «خنتكاوس»

الملكة «خنتكاوس» هي أغلب الظن بنت الملك «منكاورع»، ويرجَّح أنها كانت الأميرة وريثة الدم الملكي، ولم يكن لمنكاورع ابن ذكر من زوجته الرئيسة عند وفاته، فخلفه على العرش ابنه «شبسكاف» من إحدى محظياته، فتزوج من «خنتكاوس» ليدعم جلوسه على العرش، ويشاء الله أن ينتهي حكم «شبسكاف» أيضًا دون وريث ذكر خصوصًا بعد وفاة ابنه صغيرًا، فتنفرد «خنتكاوس» بالعرش قرابة عامين ٢٤٧٩- ٢٤٧٧ ق.م.

وعلى الرغم من كثرة الخلاف الدائر بين علماء الآثار في حكم «خنتكاوس»، فإنه يمكن أن نخرج برأي نطمئن له، وهو: أن الملكة «خنتكاوس» كانت بنت الملك «منكاورع» وصاحبة الدم الملكي والميراث الشرعي، وقد تزوجت من أخيها غير الشقيق «شبسكاف» الذي نقلت إليه شرعية الحكم، وأنجبت منه ابنه ووريثه على العرش«چدفبتاح» (تامفيتس لدى مانيتون)، وكان طفلًا صغيرًا، فحكمت له كوصية على عرشه، لكنه

يموت صغيرًا بعد قرابة عامين من الحكم، فتنفرد «ختنكاوس» بالحكم لفترة قصيرة قد لا تزيد على عام واحد، ثم تزوجت من «وسركاف» كبير كهنة «رع»، لتنقل إليه شرعية العرش للمرة الثانية، لكن في هذه المرة ينتقل العرش لأسرة جديدة لم تكن ذات أصول ملكية؛ ليبدأ عهد جديد هو عصر الأسرة الخامسة، و«تنجب ختنكاوس» من «وسركاف» ولدين هما «ساحورع»، و«نفريركارع» وهما الملكان الثاني والثالث من الأسرة الخامسة، بذلك تكون «ختنكاوس» صاحبة الفضل في النقل السلمي للعرش بين الأسرتين الرابعة والخامسة.

الملكة «نيت - إقرت»

«نيت-إقرت» والتي يعني اسمها «الربة نيت ممتازة»، والمعروفة لدى المؤرخين القدامى باسم «نيتوكريس»، وصفها معظم المؤرخين بأنها أجمل نساء عصرها، فكانت تتمتع بالملامح الشقراء، وهي بنت الملك «بيبي الثاني» وأمها الملكة «نيت»، وكانت آخر ملوك الأسرة السادسة ٢٢١٨-٢٢١٦ ق.م بعد أخيها الملك «مرينرع

الثـاني» وربـما كانـت أيضًـا زوجتـه، الـذي حكم قرابـة عام واحـد فقـط، وعندمـا مـات حكمـت «نيت-إقـرت» لمـدة عامـين، إلا أننـا لا نعـرف عـن حكـم أخيهـا أو حكمها أي معلومـات تشـير إلى أي نشـاط لهـما، وعلى الرغـم من وجود آثـار معـاصرة تـدل عـلى حكـم الملـك «مرينـرع الثـاني»، لم تقـدم لنـا الآثـار المعاصرة أيـة معلومـات عن الملكـة «نيت-إقـرت»، ولم تُذكـر في أي مـن النقـوش المصريـة، ولا نعرف عنهـا إلا ممـا ذكـره المؤرخـون، وما هـي إلا معلومات أشـبه بالأسـاطير، حتـى اعتقد بعـض الباحثـين أن «نيت-إقرت» ما هـي إلا شـخصية أسـطورية.

ذكر «هيـرودوت» في كـتـابه عـن تـاريخ مصر: «إنه بعد مينا حكم مصر ٣٣٠ ملكًا، ذُكِرُوا مدونين على بردية، قرأ له أسماءهم فيها كاهن من مدينة «منف»، ولم يكن منهم إلا امرأة واحدة هي «نيتوكريس» ، وهي التي تولت العرش بعد قتل أخيها الذي كان ملك مصر، وقتل بتدبير من رعاياه الذين رفعوا «نيتوكريس»، على العرش.

ولـما تولت عرشـها ظلـت تدبر الخطـط للانتقـام لمقتله، ثـم تحايلـت عـلى قتلة أخيهـا، بأن بنـت غرفة واسـعة تحت

الأرض، وأقامت فيها حفلًا ومأدبة عظيمة ودعتهم إليها، ولما جلسوا إلى المائدة وانشغلوا بالطعام أعطت للخدم إشارة، ففتحوا قناة سرية كبيرة تدفقت منها مياه النهر فغمرت المكان، فأخذ الضيوف بالمفاجأة وماتوا غرقًا، ثم انتحرت بأن ألقت بنفسها في حجرة مليئة بالرماد، لتتجنب القصاص منها».

أما «مانيتون» فقد ذَكَرَ أنها كانت أجمل نساء عصرها، وكانت آخر ملوك الأسرة السادسة، وأعطاها فترة حكم اثنتي عشرة سنة.

وعلى أية حال، تمكنت «نيت-إقرت» بوسيلتها وتدبيرها من الجلوس على عرش البلاد، وبنهاية حكمها انتهت الأسرة السادسة، وانتهى معها عصر من أزهى عصور مصر القديمة، ألا وهو عصر الدولة القديمة، الذي كان يشمل من الأسرة الثالثة وحتى السادسة ٢٧٠٧-٢٢١٦ ق.م.

الملكة «نفروسوبك»

الملكة «نفروسوبك» (تنطق أيضًا «سوبك-نفرو») ابنة الملك «أمنمحات الثالث»، وأخت الملك «أمنمحات الرابع»، وخليفته على عرش مصر بعد أن مات ولم يكن

لـه وريـث للعـرش، وكانـت مـدة حكمهـا ثلاثـة أعـوام وأربعـة أشـهر وأربعـة وعشريـن يومًـا، كـما جـاء في بردية القوائـم الملكيـة بمتحف «توريـن»، وتقع مـدة حكمها بين أعـوام ١٧٨٥ و١٧٨١ ق.م. وعرفت الملكة «نفروسـوبك» بألقـاب عـدة، منهـا: «الزوجـة الملكيـة العظمـى» لزواجها مـن الملـك «أمنمحـات الرابـع»، و«الوارثـة العظيمـة» باعتبارهـا وريثـة أبيهـا الملـك أمنمحـات الثالـث، التـي حاولـت دائـمًا كما يظهـر في آثارها أن تربط اسـمها باسـمه، وقامـت باسـتكمال العديد من آثاره، ومنهـا معبده الجنائزي بهـوارة بالفيـوم، ولقبـت أيضًا بـ«سـيدة كل النسـاء».

أشرك الملـك «أمنمحـات الثالـث» ابنـه «أمنمحـات الرابـع» في السـنوات الثـلاث الأخـيرة مـن حكمـه، وبعد وفـاة «أمنمحـات الثالـث» حكـم ابنـه بمفـرده تسـع سـنين، وفي هـذه الفـترة تـزوج من ابنـة الملـك «أمنمحات الثالـث» الملكـة «نفروسـوبك» التـي لم تنجـب لـه وريثًـا للعـرش، فخلفتـه في يسر عـلى العرش بعد انحصـار وراثة العـرش وشرعيـة الملـك في شـخصها، وغالبًـا مـا تطلعت «نفروسـوبك» للاسـتقلال بالسـلطة، وقـد أتيحـت لهـا الفرصـة بـلا شريـك أو منافـس، فأخـذت بهـا ووطـدت

لنفسها، وتمكنت «نفروسوبك» من حكم البلاد كملك مستقل، وتمتعت بوضع سياسي مستقر، ولم يشب عصرها أي تمردات ضد حكمها، وكانت أول ملكة مصرية تحصل على الألقاب الملكية الخمسة بوصفها ملكة حاكمة على عرش مصر.

تركت لنا «نفروسوبك» مجموعة قليلة من الآثار نظرًا لقصر فترة حكمها، إلا أنها تشير إلى نشاطها في الحكم، ومنها: نقش نيلي مؤرخ بالعام الثالث من حكمها عند الشلال الثاني بالقُرب من قلعة «قمنة» بالنوبة يسجل ارتفاع النيل. بما يشير إلى اهتمام الملكة بقياسات ارتفاع النيل؛ والذي كان يُعتمد عليه في وضع السياسة الزراعية للدولة، وكانت الزراعة ومشاريعها ومشاريع تنظيم الري واستصلاح الأراضي من أهم مشاريع ملوك الأسرة الثانية عشرة.

وبموت «نفروسوبك» ينتهي حكم الأسرة الثانية عشرة، وتنطوي صفحة من أمجد صفحات التاريخ المصري القديم، وهو «عصر الدولة الوسطى» عصر الرفاهية والازدهار الاقتصادي، لتدخل مصر مرحلة

زمنيـة جديـدة، وهي عـصر الانتــقال الثـاني، الذي تــميز بالضعف وكان سـببًا في نجاح الهكسـوس في احتلال مصر.

الملكة «حتشبسوت»

امـرأة قويـة طموحـة ذكيـة تثـق مـن مكانتهـا وقدرتها، مكَّنـت لها الظـروف فمكنت لنفسـها، هي «حتشبسـوت» أعظم نسـاء عصرها، بنـت الملك «تحتمـس الأول»، وأمها الملكـة «أحمـس»، تزوجـت مـن الملـك «تحتمـس الثـاني»، ولقبـت بـ«الزوجـة الملكيـة العظمـى»، وعند موتـه كانت الوصيـة على عـرش ابنـه «الملك الطفـل تحتمـس الثالث»، الـذي كان عمـره تسـع سـنوات آنـذاك، فحكمـت إلى جـواره مـن ١٤٧٩ إلى ١٤٥٧ ق.م، وتعـد «حتشبسـوت» مـن أهم ملـوك مصر، تميـز عصرهـا بالسـلام والازدهار، وتحسـن قـوة الجيـش، وتأمـين الحـدود المصريـة، وتوطيد وتنميـة العلاقـات والصـلات الدبلوماسـية والتجارية مع الـدول المجـاورة لمصر.

عنـد وفـاة «تحتمــس الأول» لم يكـن مـن أبنــائه إلا «حتشبسـوت» وأخيها غير الشـقيق «تحتمس الثاني»، والذي

كان عليه أن يتزوج منها، ليكتسب بذلك الشرعية لحكمه، أنجبت «حتشبسوت» بنتًا واحدة من «تحتمس الثاني» هي الأميرة «نفرورع»، أما «تحتمس الثاني» فقد أنجب ابنه الوحيد «تحتمس الثالث» من زوجة ثانوية اسمها «إيسة»، وعندما مات «تحتمس الثاني» كان ابنه «تحتمس الثالث» طفلًا لم يتعد التاسعة من عمره، ونظرًا لصغر سن «تحتمس الثالث» فقد كانت «حتشبسوت» هي الوصية على العرش لإدارة شئون الحكم.

ويذكر المهندس المعماري «إنيني» على جدران مقبرته خبرًا لهذا الحدث إذ يقول: «... ثم صعد «تحتمس الثاني» إلى السماء واندمج مع الآلهة، وجلس ابنه «تحتمس الثالث» على عرش أبيه كملك الأرضين، وحاكم على عرش من أنجبه، وأخته الزوجة الملكية «حتشبسوت» كانت هي التي تدير شئون الأرضين حسب آرائها، وقد عملت مصر خاضعة لها، وهي بذرة الإله الممتازة التي خرجت منه، ومرسى المقدمة لأرض الجنوب، ومرسى أهل الجنوب، والمرسى الممتاز لمؤخرة أرض الشمال، وهي سيدة الأمر، وآراؤها متفوقة، وكلتا الأرضين

تطمئـن عندمـا تتحـدث». وهـذا وصـف مميـز للوضع في القـصر الملكـي إبـان مـوت «تحتمـس الثاني».

إلا أن طمـوح «حتشبسـوت» ورغبتهـا في الحكـم مـع صغـر سـن «تحتمـس الثالـث» أعـدت لهـا ظروفًـا مناسـبة مكنـت لها الاسـتقلالية بالحكـم، ومع نهاية العـام الثاني من حكم الملـك الطفل «تحتمس الثالث» قامت «حتشبسـوت» بتغيـير وضعهـا مـن وصيـة عـلى العـرش إلى ملكـة حاكمة بالمشـاركة مـع «تحتمـس الثالـث»، وبالطبـع كانـت هـي الحاكـم الفعـلي للبـلاد، وأصبـح «تحتمـس الثالـث» مجـرد اسـم يظهـر معهـا في مناظـر بعض الطقـوس الدينيـة، دون سـلطة فعليـة، وكان عـلى «حتشبسـوت» أن تقـوم بدعـم ملكهـا، فأخـذت لنفسـها الألقاب الملكية الخمسـة حسـب التقاليـد المصريـة الموروثة.

وقد جـاءت هذه الألقـاب بصيغـة المـذكر تماشيًا مع التقاليد الملكية، وهـو نفسه ما جعـل «حتشـبسوت» تمثل نفسها في الفن المصري سواء أكان نحتًا أم نقشًا أم رسمًا في هيئة الرجال بالزي الملكي الكامل كملك شرعي للبلاد، كما

لجأت «حتشبسوت» إلى الدعم الديني بمساعدة كهنة «آمون رع»، بأن صورت لنفسها قصة ولادة مقدسة على جدران معبدها الجنائزي في الدير البحري، فقد ظهر «آمون رع» متجسدًا في هيئة أبيها «تحتمس الأول» متزوجًا أمها الملكة «أحمس»، لتكون ثمرة هذا الزواج الابنة «حتشبسوت»، وبذلك تكون هي بنت الإله «آمون رع» من صلبه، ويحق لها بهذا النسب الجلوس على العرش بصفتها الإلهية وليست البشرية، وتعد مناظر الولادة المقدسة لحتشبسوت من أهم التسجيلات بالنص والصورة لدعاية سياسية من خلال الدين سجلت في تاريخ البشرية.

وقد استخلصت «حتشبسوت» لنفسها بعض رجال الدولة الذين أخلصوا لها ومكنوا لها، وبالطبع مع الحصول على المقابل برفع مكانتهم في الدولة، وكان من أهم هؤلاء الرجال «سنموت»، وكان مدير بيت «آمون»، وكان رجلًا طموحًا يعرف كيف يدير الأمور لمليكته ولنفسه؛ حيث قال: «لقد كنت في هذه الأرض تحت إمرة «حتشبسوت» منذ اللحظة الأولى التي لقي فيها سلفها «تحتمس الثاني» حتفه، فلم أضيع أي وقت

لكسب حظوة الملكة التي كانت تقبض بيديها القادرتين على أقدار البلاد وإدارتها».

ومنذ بداية وصاية «حتشبسوت» على العرش بدأ صعود نجم «سنموت»، وارتبط اسمه بكثير من أعمال وتكليفات «حتشبسوت»، فأصبح المربي الأول لابنتها الأميرة «نفرورع»، وكان «سنموت» مديرًا للبيت العظيم لأملاك «حتشبسوت» وأملاك «نفرورع»، والمشرف على أعمال «آمون»، ومدير أشغال الملك في معبد «آمون»، وكان المهندس المعماري لمعبد الدير البحري.

وكل هذه الوظائف مكَّنت له لكي يكون ذا قرار في حكم البلاد، وربما منفردًا في بعض قراراته دون الرجوع لمليكته، وكان يفاخر بحظوته لدى «حتشبسوت» وبأنه يطلع على الغرف الخاصة بالقصر الملكي، وربما كان هذا سببًا في اختفائه بشكل مثير في أواخر عهد «حتشبسوت»، إذ إنها لم تقبل بمثل هذا التعدي من خادم لها مهما بلغت مكانته التي منحتها هي إياه، بخاصة أنه كان قد أدى الدور الذي كلف به من قِبَلها.

ولقد كان لزامًا على حتشبسوت مواجهة وتأمين القانون والنظام بين الناس، ودرء الأعداء، وتأكيد

الحفاظ على ماعت[1]، وهو ما أشارت إليه أيضًا في قولها: «أنا أعظم «ماعت» التي يحبها (رع)، لأني أعرف أنه يعيش بها، إنها أيضًا خبزي وأنا أشرب من نداها»، هذا الالتزام الملكي يفرض فهم القوة والسلطان اللذين خولا لها من قبل أبيها «آمون رع»، بتنفيذ القانون، وإقرار «ماعت» أي: إقرار الحق والعدل والنظام على الأرض وبين الرعية وفي علاقتها بالأرباب كالتزام ملكي حسب الشريعة المصرية.

عاشت مصر في عهد الملكة «حتشبسوت» عصرًا من أزهى عصور الحضارة المصرية على مدار ٢٢ سنة قضتهم في حكم مصر، تحفها العظمة وتذخر بالمجد، ونعمت مصر بالرقي والاستقرار والعلاقات الدولية الوطيدة، لتخلد اسمها بين أعظم حكام الدنيا، كما تميز عصرها بالعديد من الإنشاءات المعمارية التي توضح مدى ازدهار عصرها، إلا أن أهم آثار «حتشبسوت»

(١) «ماعت» هي مفهوم فلسفي أخلاقي يعني الحق والعدل والنظام، وهي الدستور الذي شكله المصري القديم كمبدأ لتلبية احتياجات الدولة المصرية، وسعى لوضعه لتجنب الفوضى، وأصبح أساس القانون المصري.

على الإطلاق هو معبدها الجنائزي الشهير في الدير البحري، الذي يعد من أخلد أعمالها بتصميمه الفريد ونقوشه الرائعة.

ماتت «حتشبسوت» في ظروف غامضة، ليخلفها على عرش مصر «تحتمس الثالث» كأعظم فراعنة مصر وأعظم ملوك الدنيا، الذي تربى وترعرع وتمرس على العسكرية والحكم في كنف «حتشبسوت»، التي وطدت له دولة عظيمة الموارد والخيرات، غنية الثروات، قوية السيادة، ومستقرة الأركان.

الملكة «نفرتيتي»

لم تشتهر ملكة في التاريخ بجمالها كما اشتهرت «نفرتيتي»، ويعني اسمها «الجميلة أتت»، وتعد من السيدات صاحبات النفوذ اللائي لعبن دورًا مهمًّا في تاريخ مصر القديمة، وقد بدأت حياتها ملكة تجلس إلى جوار زوجها الملك «أخناتون» من عصر الأسرة الثامنة عشرة في الفترة من ١٣٥٠-١٣٣٤ ق.م، وقد تزوج «أخناتون» من «نفرتيتي» في سن مبكرة وربما بعد جلوسه

عـلى العـرش مبـاشرة، بـدآ الحكـم معًـا في طيبـة، وشـاركا معًـا في إعـمار معابـد الكرنـك كتقليـد ملـوك الأسرة الثامنة عـشرة، فشـيّد «أخناتـون» في الناحيـة الشرقية مـن الكرنك معبـدًا للإلـه «آتـون»، وكان معبـدًا ومقـرًّا لإقامـة ملكيـة، وقـد كـرَّس فيـه قاعـة مهـداة لزوجتـه الحبيبـة «نفرتيتـي».

في العـام الخامس من حكـم «أخناتون» انتقـل الزوجان بديانتهـما الجديـدة إلى تل العمارنـة في مصر الوسـطى، وقد أنجبـت «نفرتيتـي» للملـك «أخناتـون» سـت بنـات، ولم تنجـب له ولـدًا، ولقبـت «نفرتيتي» بالعديد مـن الألقاب، مثـل: الأمـيرة الوراثيـة، وعظيمـة المديح، وسـيدة النعمة، وعذبـة الحب، وسـيدة الأرضين، وزوجة الملـك العظيمة، وحبيبته، وسـيدة كل النسـاء، وسـيدة الجنوب والشـمال.

كانـت «نفرتيتـي» الشـابة الجميلـة الذكيـة الطموحـة المحبـة لزوجهـا وأسرتهـا، تمتعـت ونعمـت بحـب زوجها لهـا، لكنهـا عرفـت كيـف تفيـد مـن هـذا الحـب لصالـح طموحهـا ووجودهـا في الحكـم، ومكَّنت لنفسـها في قلب «أخناتـون» فمكـن لهـا، وبـه غمرتـه حبًّـا وعطفًـا ومودة،

ولم تكـن «نفرتيتـي» ابنة ملك، فهي إذًا لا تنسـب إلى الملك «أمنحوتـب الثالـث»، ولا يعـرف أصلها على وجـه اليقين حتـى الآن، ويُعتقـد أنهـا بنـت الكاهن «آي» الـذي جلس عـلى العـرش بعد وفـاة «تـوت عنـخ آمـون»، وبخاصة أن زوجتـه لقبـت بـ«مرضعـة نفرتيتي».

كانت «نفرتيتي» تساند زوجها في دعوته الدينية الجديدة التي كانت بمثابة ثورة دينية واجتماعية، وكانت داعمة له في نقل العاصمة إلى مقرها الجديد، التي سميت بـ«آخت آتون» بمعنى أفق آتون، وموقعها الآن قرية تل العمارنة بمحافظة المنيا، وهناك لعبت إلى جانب زوجها دورًا أساسيًّا في نشر تعاليم الديانة الجديدة التي نادى بها، وظهرت معه في كل المناسبات والاحتفالات الدينية والرسمية، وهو ما يمكن معرفته من المناظر التي صورتهما معًا، وصورت بناتهما معهما على جدران معابد آتون ومقابر الأشراف بتل العمارنة، كما ظهرت في بعض المناظر وهي تقوم بضرب الأعداء مثلها مثل الملك، وهو ما يؤكد ما تمتعت به من سلطة واسعة ليس لها مثيل في حكم البلاد إلى جوار «أخناتون».

تميزت «نفرتيتي» بشخصية فريدة من نوعها في التاريخ المصري، إلا أنها ما زالت محط الكثير من التساؤلات، وموضع نقاش الباحثين عن حياتها وحكمها وقدرتها على تصريف الأمور السياسية إلى جوار زوجها، فما مقدار سلطتها في الحكم إلى جانب زوجها؟ ومتى ماتت؟ وهل حكمت بعد وفاة زوجها؟ وأين دفنت؟ وهل هي نفسها «سمنخكارع» كما يعتقد بعض المتخصصين؟

حديثًا كشفت لنا بعض الآثار أن «نفرتيتي» عاشت حتى العام السادس عشر من حكم «أخناتون»، وبذلك فهي كانت لا تزال تمارس نشاطها معه في السلطة بوصفها شريكة في الحكم حتى آخر أيامه، وربما عاشت من بعده وحكمت منفردة بلقبها «نفرنفرو آتون»، أو غيرت اسمها إلى «سمنخكارع»، بعد وفاة «أخناتون» كما يعتقد بعض الباحثين.

لعبت نفرتيتي دورًا مهمًّا في كل من الحياة الدينية والحياة السياسية إلى جانب «أخناتون»، وقد زادت قوتها ومكانتها في ظل زوجها، ومن المرجح أنها عاشت

بعـد «أخناتـون» واعتلـت العرش مـن بعـده لوقت قصير حكمـت فيه مـصر وحدها، كـما أن هناك دراسـات حديثة ربطت بـين «نفرتيتي» و«سـمنخكارع» باعتبارهما اسـمين لشـخص واحـد، الأول «نفرتيتـي» كان للملكـة الزوجـة المشـاركة في عرش زوجها، والثاني «سـمنخكارع» للملكة المنفـردة بالحكـم بعـد مـوت زوجها.

الملكة «تاوسرت»

الملكـة «تـاوسرت» التـي يعنـي اسـمها: القويـة، هـي ملكـة فريـدة في حكمهـا، بـدأت حياتهـا كزوجـة ملك إلى جـوار زوجهـا الملـك «سـيتي الثـاني»، ولقبـت بـ«الزوجة الملكيـة العظمـى»، ثـم كانـت وصيـة عـلى عـرش ابنـه ووريثـه الملـك الصبي «سـيبتاح»، ثم انفـردت بالحكم بعد موتـه حتـى وصـول الملـك «سـتنخت» للعرش وتأسـيس الأسرة العشريـن.

ولـدت «تـاوسرت» في الفـترة الأخيرة مـن حكم الملك «رمسـيس الثـاني»، واعتقـد بعـض الباحثـين أنهـا حفيدته مـن ابنـه الملـك «مرنبتـاح»، وربـما كانـت واحدة مـن آخر

أبناء الملك «رمسيس الثاني» وليست حفيدته، ولا يوجد دليل صريح من الآثار المصرية يؤكد أحدهما، اللهم إلا ما عثر عليه في المقبرة ٥٦ بوادي الملوك مجهولة الصاحب، وكانت تحوي أشياء وكمية كبيرة من الحلي الذهب تحمل أسماء «رمسيس الثاني»، و«سيتي الثاني»، و«تاوسرت»، وعلى الرغم من الخلاف على هوية المقبرة وماهية الأشياء التي عثر عليها؛ فإنها تربط بين أسماء ثلاثة، «تاوسرت» وزوجها «سيتي الثاني»، واسم «رمسيس الثاني» الذي قد يكون أبوها.

بعد موت الملك «مرنبتاح» آخر الملوك الأقوياء في الأسرة التاسعة عشرة، عمت البلاد فترة عصيبة من الفوضى وملامح مؤامرات وصراع على العرش، وخلفه على العرش ابنه «آمونمس» الذي حكم حوالي أربع سنوات، تمكن بعدها «سيتي الثاني» من الجلوس على العرش، وتزوج من «تاوسرت» ولقبت بـ«الزوجة الملكية العظمى».

مات «سيتي الثاني» بعد فترة حكم قصيرة لا تزيد على ثلاث سنوات، وخلفه ابنه الطفل «سيبتاح» من

زوجتـه المسـماة «تاخعـت»، أو ربـما مـن محظية سـورية كما يعتقـد البعـض، وتمكنـت «تـاوسرت» أن تكـون الوصيـة عـلى عـرش الصبـي «سـيبتاح» الـذي كان مريضًـا بشـلل الأطفـال كـما يتضـح مـن موميائـه، وكان غـير قـادر عـلى الحكـم بفاعليـة، وكانـت «تـاوسرت» لا تـزال تحمل لقب الزوجـة الملكيـة العظمـى فشـاركت «سـبتاح» في العرش، ومـن ثـم كانـت المتصرفـة في الحكم.

لم تكـن «تـاوسرت» هي القـوة الوحيدة خلـف العرش، بـل كان هنـاك أيضًـا موظـف قـوي يدعـى «بـاي» وكان سـوري الأصـل، الذي ربـما كان ذا صلـة قرابة بأم سـيبتاح مكنتـه مـن الوصـول إلى هـذا المـكان الرفيع في العـرش كما يعتقـد البعـض، وكان لقبه «مستشـار الأرض كلها»، وظهر وكأنـه الحاكـم الفعـلي للبلاد في فـترة حكم «سـيبتاح»، وقد صـور مـرات عدة مـع كل من «سـيبتاح وتـاوسرت»، حتى أنـه في بعـض النقـوش ادعـى أنـه الـذي «ثبـت الملـك على عـرش أبيـه»، وهـي عبارة غـير عاديـة لشـخص في مكانته.

كانـت العلاقـة بـين «بـاي» و«تـاوسرت» قائمـة عـلى المصلحـة المتبادلـة، فـكان «بـاي» قـد تمكـن مـن كثـير من

السـلطات في عهـد الملك «سـيتي الثـاني» ، وأصبح الرجل القـوي في القـصر، الأمر الـذي جعل «تـاوسرت» تفكر في الاعتـماد عليـه لدعـم مركـز «سـيبتاح» ومركزهـا كوصية عـلى عرشـه، وفي المقابـل يضمـن «بـاي» جلـوس ملـك صغـير مريـض، تجلس إلى جـواره امرأة يمكـن من خلالهما أن يـمارس سـلطات واسـعة، ربـما أطمعتـه للطمـوح إلى السـلطة، وهـو ما خشـيت منـه «تـاوسرت»، وتمكنت من جعـل «سـيبتاح» يصـدر قـرارًا بإعدامـه في العـام ٥ مـن حكمـه القصـير، باعتبـاره خائنًـا لفرعـون، وتدل شـواهد الأمـور أن المدبـر للتخلـص من هذا الشـقي «بـاي» كانت الملكـة «تـاوسرت» صاحبـة النفـوذ الأقـوى في العـرش، وذات الطمـوح القـوي للانفـراد بالحكـم؛ لـذا تعارضت المصالـح مع تطلعـات «باي» وكان لا بد مـن التخلص من الغريـم على السـلطة، فكلاهما يسـعى للسـيطرة على الملك الصبـي المريـض فيخلـص لـه الحكم، لكـن عادة ما تسـير الأمـور مـع الأقـوى نسـبًا والأقـرب للشرعيـة، وهـذا ما سـاعد تـاوسرت للإيقاع بـه، وحتى يخرج الأمـر شرعيًّا لا لبـسٍ فيه تمكنـت من أن يكـون إعدامـه بأمر ملكـي بتهمة الخيانـة للفرعـون والدولة.

خلص الأمر لوجه «تاوسرت» وسرعان ما مات «سيبتاح» الصبي المريض بعد شهور عدة من قتل «باي»، ومات «سيبتاح» قبل أن ينتهي العام السادس من حكمه، وتمكنت «تاوسرت» من العرش، ولعبت دورًا بارزًا منذ أن كانت الزوجة الملكية العظمى للملك «سيتي الثاني»، واستطاعت التأثير بشكل واضح في مجريات الأمور، وفي فترة الشراكة في الحكم مع «سيبتاح» تمكنت من تعظيم دورها في توجيه سياسة البلاد الداخلية والخارجية، ولعبت الدور الأبرز في شئون البلاد، ثم آل إليها الحكم منفردة لمدة تزيد على سنتين.

حاولت «تاوسرت» أن تدير أمور البلاد كفرعون قوي؛ فاتبعت سياسة إعمار المعابد، واتخذت ألقابًا ملكية ذكورية، وبخاصة اللقب الحوري «الثور القوي»، وهو ما يعطي انطباعًا بقوةٍ وفحولةٍ ملكيةٍ بالطبع في غير محلها، إلا أن «تاوسرت» حافظت على مظهرها الأنثوي في النحت والتصوير.

لم تنعم «تاوسرت» بفترة حكم هادئة، فسرعان ما دبت بعض الفوضى في البلاد بسبب الاقتصاد المتردي

الـذي تبعـه ثـورة شـعبية وحـرب أهليـة، ولا نعـرف مـا إذا كان قـد أطيـح بهـا مـن العـرش بواسـطة «سـتنخت» مؤسـس الأسرة العشريـن أم ماتت في سـلام أثناء حكمها.

شكل (٥): جزء علوي من تمثال الملكة «نفروسوبك»

شكل (٦): الجزء الأوسط من تمثال الملكة «نفروسوبك» بهيئة ملكية يختلط فيها سمات الذكورة والأنوثة في نحت فريد

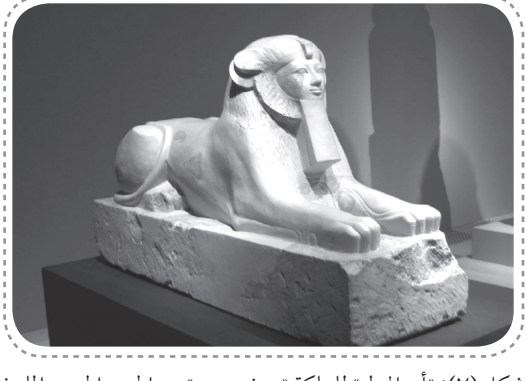

شكل (٧): «أبو الهول» للملكة «حتشبسوت» من الحجر الجيري الملون

شكل (٨): تمثال جالس للملكة «حتشبسوت»، وتظهر بهيئة ملكية كاملة

شكل (٩): معبد الدير البحري، وهو المعبد الجنائزي للملكة «حتشبسوت»

شكل (١٠): رأس الملكة «نفرتيتي» من الحجر الجيري الملون

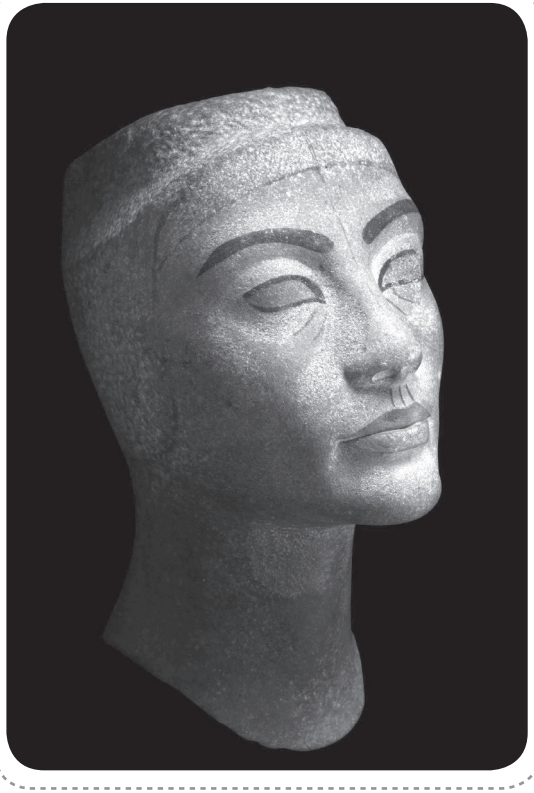

شكل (١١): رأس غير مكتمل للملكة «نفرتيتي» من الحجر الرملي

شكل (١٢): الملكان «أخناتون» و«نفرتيتي» في هيئة متساوية تمامًا

شكل (١٣): لوحة من الحجر الجيري لأخناتون ونفرتيتي في مداعبة أطفالهما

شكل (١٤): مجموعة من الحلي الذهبية للملكة «تاوسرت»

المتعبدات الإلهيات

«المتعبـدة الإلهيـة» لَقَبٌ حملته سـيدات لعبـن دورًا دينيًّا وسياسـيًّا مُهـمًّا جـدًّا في الحكـم في فـترة عـصر الانتقـال الثالـث والعـصر المتأخـر مـن تاريـخ مـصر الفرعونية، أي أنـه «لقـب كهنـوتي» ذو مدلـول وظيفـي دينـي وسـياسي، وقـد حكمـت «المتعبدات الإلهيـات» في طيبة حكـمًا موازيًا للملـك الحاكـم، إلا أن هؤلاء السـيدات حُمِلـن على الحكم حمـلًا، أي إنهـنّ لم يكـنّ ملـكات فرعونيـات ذوات طموح للمُلْـك أو سـعين إليـه، أو مكـنّ لأنفسـهن بمجهودهـن، بـل كـنّ سـيدات مـن البيـت الملكـي وصلـن إلى هـذه الوظيفـة بترشـيح آبائهـن وبدعمهـم لهـن، حتـى يتمكـنّ كملـك حاكـم مـن دعـم ملكـه، والحـد مـن نفـوذ كهنـة «آمـون» في «طيبـة»، وهـو نفـوذ كان يُمكـن صاحبـه مـن الحكـم المسـتقل في الجنـوب كلـه، بـل يُمكن،صاحبـه من إعلان نفسـه ملـكًا في الجنـوب، وبحكم «المتعبـدة الإلهية»

ضعـف نفـوذ كهنـة «آمـون»، وأصبحـت حاكـمًا مشـاركًا للملـك الرسـمي، تحكـم مـن خلالـه، يدعمهـا وتدعمه.

وقـد حملـن هـؤلاء السـيدات ثلاثـة ألقـاب كهنوتيـة هـي: «الزوجـة الإلهيـة»، و«المتعبـدة الإلهية» و«يـد الإله»، كان أقـدم هـذه الألقاب ظهـورًا لقـب «الزوجـة الإلهية»، وارتبـط اللقب بالمعبـود «آمون» «الزوجـة الإلهية لآمون»، وكانـت الملكـة «أحمـس نفرتـاري» أخـت وزوجـة الملـك «أحمـس» حوالي ١٥٥٠-١٥٢٥ ق.م، أول سـيدة حصلت عـلى هذا اللقـب، وأصبح لقـب الزوجة الإلهيـة لقبًا شرفيًّا لا يمنـح إلا لسـيدات مـن البيـت الملكـي طـوال عـصر الدولـة الحديثـة ١٥٥٠-١٠٧٠ ق.م، بخاصـة للسـيدات الـلاتي كان لهـن دور في الطقـوس الدينيـة.

مـع التغـيرات السياسـية في نهاية عـصر الدولـة الحديثة تطـور دور الزوجـة الإلهيـة تطورًا جديـدًا مصحوبًـا بنفوذ دينـيٍّ وسـياسيٍّ متزايدٍ، اعتبـارًا من عصر الملك «رمسـيس السـادس» ١١٤٢-١١٣٤ ق.م، الـذي جعـل مـن اللقب الـشرفي «الزوجـة الإلهيـة لآمـون» دورًا كهنوتيًّـا في معبـد «آمـون» مرتبطًـا بدور سـياسي ملحوظ في الحكـم في طيبة،

وبهـذه الطريقـة تمكـن الملـك مـن الحـد بعـض الـشيء من نفـوذ كهنـة «آمـون»، وقـد ظهـر لقـب المتعبـدة الإلهية إلى جـوار لقـب الزوجـة الإلهيـة، في إشـارة واضحـة لدورها الدينـي، وبذلـك نجحـت الزوجـات الإلهيات بمسـاعدة آبائهـن في تـولي السـيطرة الفعليـة عـلى كهنـوت «آمـون»، وأصبحـت صاحبـة السـلطة في طيبـة والبلـدان المجاورة.

استمر النمو المتزايد في الدور الديني والسياسي للمتعبدة الإلهية لآمون وأضيف لها مسئوليات دينية كأنها ملك، وكُتب اسمها في خرطوشين ملكيين، هكذا بدأ في طيبة أسرة دينية نسائية حاكمة مارست دورًا سياسيًّا موازيًا للدور السياسي للملك الحاكم في الشمال، أي أصبح يحكم مصر ملكان، الأول في الشمال وهو الحاكم الرسمي للبلاد، وهو ملكٌ رجلٌ طبقًا للتقاليد المصرية، و«المتعبدة الإلهية» في الجنوب، وإن كان هذا لا يمنع من ظهور الملك الرسمي في مناظر الطقوس الدينية في معابد طيبة.

حكمت «المتعبدة الإلـهية» مـن معـبد «آمـون» بالكـرنك الذي كـان مقر إقـامتها، وأمضـت فـيه معـظم حـياتها دون زواج - كالراهبات في مفهومنا الحـالي - باعتبـارها أصبحت

زوجة للإله «آمون»، وبدأ تقليد التبني لمنصبها، إذ إن العزوبة كانت تمثل شرطًا مسبقًا للمتعبدات الإلهيات، وأصبحت تنقل وظيفة «المتعبدة الإلهية» من متعبدة إلى أخرى عن طريق التبني، إلا أنها لم تكن مخيرة في اختيار خليفتها التي ستتبناها، بل كان هذا متروكًا للملك الحاكم الذي يجبر «المتعبدة الإلهية» التي في السلطة على تبني خليفتها، والتي عادة ما تكون ابنته.

وفي عهد الأسرة الثالثة والعشرين نصب الملك و«سركون الثالث» حوالي ٧٧٨-٧٤٠ ق.م، ابنته «شبنوبت الأول» «متعبدة إلهية لآمون»، ثم جمع لها إلى منصبها منصب «كبير كهنة آمون» لأول مرة، وهي الوظيفة التي كانت تُخَوِّل لصاحبها سلطة مطلقة في طيبة كملك مستقل، وبذلك مكن و«سركون» لابنته السلطة والنفوذ.

ومنذ عصر «شبنوبت الأولى» أصبحت «المتعبدة الإلهية» لآمون صاحبة السلطة الفعلية في الجنوب كملكٍ موازٍ لملك الشمال، مع الاعتراف الرسمي به ملكًا للبلاد، واستمر الأمر كذلك على مدار ٢٢٩ سنة حكمت فيها خمس «متعبدات إلهيات» جنوب مصر حكمًا مطلقًا باعتراف الملك الرسمي للبلاد.

المتعبدة الإلهية «شبنوبت الأولى»

«شبنوبت الأولى» (٧٥٤-٧١٤ ق.م) بنت «وسركون الثالث» و«كاراتيت»، وهي بذلك تنتمي إلى الأسرة الثالثة والعشرين ذات الأصول الليبية، وقد حكمت في طيبة بتمكين من أبيها «وسركون الثالث» لتبدأ عهدًا جديدًا للمتعبدات الإلهيات باعتبارها ملكًا حاكمًا على الجنوب، وإن كانت تحكم طبقًا لسياسة الملك الحاكم الشرعي للبلاد.

تلقبت «شبنوبت الأولى» كملكة مشاركة في الحكم بالألقاب الملكية: «سيدة الأرضين» ، التي تلبي رغبات «آمون»، «بنت رع» ، «حبيبة موت»، «شبنوبت» بدأت سياسة معمارية جديدة في الكرنك، فوضعت حجر أساس معبد «أوزيريس رب الحياة»، ومعبد «أوزيريس حاكم الأبدية» بالكرنك، ثم قامت باقي المتعبدات الإلهيات اللاتي حكمن بعدها باستكمالهما والإضافة إليهما.

شاركت «شبنوبت الأولى» أربعة ملوك من أسرتها في الحكم، هم: أبوها الملك «وسركون الثالث»، وأخوها الملك «تكلوت الثالث» وخليفته الملك «رودچآمون»، والملك «إني» آخر ملوك أسرتها، وثلاثة ملوك من الفرع

الآخر لأسرتها، الذي حكم في الدلتا، وهم: الملك «بادي-باستت الثاني» وحكم من صان الحجر، والملكان «إيبوت الثاني» و«وسركون الرابع» وحكما من «هليوبوليس»، كما عاصرت حكم آخر ملوك الأسرة الثانية والعشرين «شاشانق الخامس» الذي حكم من تل بسطة، والملك «بعنخي» مؤسس الأسرة الخامسة والعشرين الذي أجبرها على تبني أخته «إمنرديس الأولى».

المتعبدة الإلهية «إمنرديس الأولى»

حكمت «إمنرديس الأولى» (٧٤٦-٧٠٠ ق.م)، وهي بنت «كاشتا» و«باباتما»، كوشية الأصل، واتخذت الألقاب الملكية، وكان الملك «بعنخي» قد أجبر «شبنوبت الأولى» على تبني «إمنرديس الأولى» في عام (٧٤٦ ق.م)، وعاشت معها في الكرنك حتى ماتت، وحكمت مستقلة في عام (٧١٤ ق.م).

ويتضح أن التقاليد الدينية المصرية التي احترمها «بعنخي» لا تسمح بإقصاء المتعبدة الإلهية القائمة في وظيفتها، إلا أنها كانت مجبرة بطبيعة الحال على الولاء للحاكم الجديد، وكانت تحكم طيبة مع ابنتها بالتبني

باسـم ملـك «كـوش» اعتبـارًا من عـصر أخيهـا «بعنخي» الـذي ضـم مـصر لمملكـة «كـوش» بالنوبـة العليـا.

شـاركت «إمنرديس الأولى» الملكين «شاباكا» و«شابتكا» في اسـتكمال معبـد «مونتـو» ومقصـورة «أوزيريـس» حاكم الأبديـة بالكرنـك، كـما شـاركت أربعـة ملـوك مـن أسرتها الكوشـية في الحكـم، هـم: أخوهـا الملـك «بعنخـي»، وخلفـاؤه «شـاباكا» و«شـابتكا» و«طاهرقـا»، وكان عليهـا تنسـيق العمـل السـياسي في طيبـة بينهـا وبين البيـت الحاكم في كـوش، وعليهـا إقامـة الشـعائر الدينيـة باسـمها واسـم الملـك الكـوشي المشـارك في الحكـم، إلا أنها كانت المسـئول الأول عـن السياسـة الدينيـة في طيبـة والأقاليـم المجاورة في كل مـصر العليـا.

المتعبدة الإلهية «شبنوبت الثانية»

حكمـت «شـبنوبت الثانية» الكوشـية الأصـل في الفترة (٧١٠-٦٥٠ ق.م)، وهـي بنـت «بعنخـي» وأمهـا غـير معروفـة، وقـد اتخذت لنفسـها الألقـاب الملكيـة، وخلفت «إمنرديـس الأولى» بعـد وفاتهـا عـام ٧٠٠ ق.م، وأشرفت عـلى جنازتهـا، وأقامـت لهـا القرابين.

حكمت «شبنوبت» وحدها طبقًا لسياسة الملك الكوشي، وبدأت استكمال العمارة الدينية بطيبة، فأقامت مع الملك «طاهرقا» مقصورتين «لأوزيريس» بالكرنك، ومقصورة في «المدامود».

شاركت «شبنوبت الثانية» أربعة ملوك كوشيين في الحكم، هم: أخوها «شاباكا»، ثم «شابتكا» و«طاهرقا» وآخر حكام الأسرة الخامسة والعشرين في مصر الملك «تانوت-آمون»، ثم الملك «بسماتيك الأول» مؤسس الأسرة السادسة والعشرين، الذي احترم التقاليد الدينية ولم يقصها عن حكمها، لكنه أقصى ابنتها بالتبني «إمنرديس الثانية» ابنة الملك «طاهرقا»، إذ إنها لم تكن حتى تاريخه المتعبدة الإلهية الرسمية للبلاد، وأجبرها على تبني بنته «نيت-إقرت»، وكان على «شبنوبت الثانية» المثول لرغبته، والاستمرار في الحكم طبقًا لسياسة الملك الحاكم الجديد، طبقًا لما جرت عليه سُنة المتعبدات الإلهيات، فهي لا تكون طرفًا في صراع سياسي أو عسكري، بل قائمة على حكم ديني وسياسة دينية بالتوافق مع البيت الملكي صاحب الشرعية في الحكم.

المتعبدة الإلهية «نيت-إقرت»

«نيت-إقرت» (٦٥٦-٥٨٦ ق.م)، بنت الملك «بسماتيك الأول» وأمها «محيتنوسخت»، عينت بتبني «شبنوبت الثانية» لها في العام التاسع من حكم أبيها الموافق لعام ٦٥٦ ق.م، شاركت «نيت-إقرت» حكم أربعة ملوك من أسرتها، هم: أبوها «بسماتيك الأول»، وأخوها الملك «نيكاو الثاني»، وابنه الملك «بسماتيك الثاني»، ثم الملك «واح إيب رع» الذي ماتت في عهده.

مع تتويج الزوجة الإلهية «نيت-إقرت» والمعروفة لدى كثير من المتخصصين باسمها اليوناني «نيتوكريس»، بلغ تأثير الزوجة الإلهية كملك حاكم ذروته، ومن حسن الحظ أن حُفِظ لدينا نقش شهير على لوحة من الحجر الجرانيت محفوظة في المتحف المصري بالقاهرة، تعرف بلوحة تبني «نيتوكريس»، وهي تظهر مدى ثرواتها والعديد من المزايا التي حصلت عليها في أقاليم مصر من الجنوب إلى الشمال التي أعدها لها والدها الملك «بسماتيك الأول» من الأسرة السادسة والعشرين

(٦٦٤-٦١٠ ق.م)، وما ورد في هذا النص دليلٌ على مدى ثراء هؤلاء المتعبدات الإلهيات.

يذكر نص اللوحة على لسان الملك «بسماتيك»: «لقد أعطيت «لآمون» ابنتي «نيت-إقرت» كزوجة إلهية، وقد جهزتها بأفضل تجهيز أحسن من أولئك الذين كانوا قبلها، وقد علمت بأن الملك «طاهرقا» الإله الطيب كان قد أعطى ابنته «إمنرديس الثانية» كابنة بالتبني لأخته الزوجة الإلهية «شبنوبت الثانية»، وأنا لا أحب أن أقصي وريثًا عن مكانه، لأني ملك يحب العدل ويكره الافتراء، ... لكني سأعطيها ابنتي «نيت-إقرت» كابنتها البكر «بالتبني»».

ثم يصف النص رحلة «نيت-إقرت» إلى طيبة: «في السنة التاسعة الشهر الأول لفصل آخت يوم (٢٨ = ٢٣ من فبراير) غادرت ابنته الكبرى، مرتدية الكتان الجميل ومزينة باللازورد، يرافقها عدد عظيم من التابعين، وقد أفسح الحرس لها الطريق لبدء الطريق السوي إلى الميناء لتصعد النيل إلى طيبة، كانت السفن التي تقلها كثيرة جدًّا، وكان الملاحون رجالًا أشداء، وكدست «السفن»

عـن آخرها بـكل شيء جميل من قـصر الملـك، وكان القائد هـو: «السـمير الوحيـد» (لقـب للنبـلاء) حاكـم مقاطعـة إهناسـيا المدينـة، والقائد الأعلى للجيش، وقائد الأسـطول المدعـو: «سـماتاوي-تفنخت». وقـد سـافر الرسـل إلى الجنـوب ليقومـوا بالتجهيـزات الفاخـرة أمامهـا، وأقلعت السـفن ... وأخذ العظـماء أسـلحتهم، وحصل كل شريف عـلى مئونتـه، مجهـزًا بـكل شيء طيب من خبـز وجعة ولحم ثـيران وبـط وتمـر وخـضر، وكل شيء طيـب،... حتـى وصلـت إلى طيبة».

وبعد مغادرتها بلدة «سـايس» بسـتة عـشر يومًا وصلت إلى طيبـة، وكلـما تقـدم الموكب وجدت الحشـد مـن رجال طيبـة ونسـائها واقفـين مبتهجـين باقترابهـا، محيطـين إياهـا بالقربـات العظيمـة، وكان عددهم جمًّـا غفيرًا.

ثـم يسـتكمل النـص بتحويـل ممتلـكات «شـبنوبت الثانيـة» إلى«نيت-إقـرت»: «والآن وبعـد أن وصلـت إلى المتعبـدة الإلهية «شـبنوبت»، نظـرت إليها بارتيـاح وأحبتها أكثـر مـن أي شيء، وقـد نزلـت لهـا عـن الثـروة التـي كان قـد نـزل عنهـا والدهـا ووالدتهـا لهـا ولابنتهـا الكـبرى «إمنرديـس» ابنـة الملـك... وقالـت: لقـد أعطينـاك كل

متاعنـا في الحقـل وفي المدينة، وأنك سـتمكثين على عرشـنا باقيـة ومخلـدة لأبـد الآبديـن».

بذلـك ذكـرت القائمـة عـلى لوحـة التبنـي جميـع الممتلـكات والهدايـا التـي قدمـت لـ«نيت-إقـرت» عنـد تبنيهـا، فقـد حصلـت عـلى هدايـا من رؤسـاء عـدة لكهنة «آمـون» ومـن «منتومحـات» عمـدة طيبـة وأفـراد أسرتـه، ممثلـة في كثـير من منتجـات الحقـول والمدن، مـع الأراضي الجافـة وقنواتهـا من العديد مـن المدن والمناطـق في الجنوب والشـمال، بالإضافـة إلى مـا قدمـه لهـا أبوهـا «بسـماتيك الأول» في إحـدى عـشرة مقاطعـة مـن مقاطعـات مـصر.

هـذا يـدل على بدايـة قويـة «لنيت-إقـرت» عنـد توليها منصبهـا، التـي بالإضافـة إلى أنها ضمنت الاعـتراف بها في جميـع أنحاء مـصر فقد ضمنـت لها الجـاه بالملكية الواسـعة في طـول البـلاد وعرضها.

المتعبدة الإلهية «عنخنسنفريبرع»

«عنخنسـنفريبرع» (٥٩٥-٥٢٥ ق.م)، بنـت «بسـماتيك الثـاني» و«تاخويت»، وقد أسـهمت في اسـتكمال العديد من النقـوش في الكرنـك، وقـد شـاركت أيضًـا أربعـة ملوك في

الحكم بدءًا من أبيها الملك «بسماتيك الثاني» ثم خلفائه من بعده الملوك: «واح إيب رع» (إبريس)، و«أحمس الثاني» «(أمازيس)»، و«بسماتيك الثالث» آخر ملوك الأسرة السادسة والعشرين الذي انتهى حكمه بغزو الفرس لمصر ودخول «قمبيز» وتأسيس أسرة حاكمة جديدة هي الأسرة السابعة والعشرون، التي انتهى معها عصر المتعبدات الإلهيات، وعاد الوضع إلى ما كان عليه سابقًا، إلا أن نفوذ كبير كهنة «آمون» كان قد ضعف، كما أصبح يدين الآن بالولاء للحكام الفرس الجُدد.

استمرت المتعبدة الإلهية «عنخنسنفريبرع» في استكمال سياسة «نيت-إقرت» الدينية في الجنوب، مع الاحتفاظ بالنفوذ الكبير والسلطة الواسعة التي تمتعت بها سابقتها، وقد شاركت في استكمال نقوش مقصورتي «أوزيريس» حاكم الأبدية، و«أوزيريس» رب الحياة في الكرنك.

بدخول «قمبيز» مصر وتأسيس أسرة جديدة عام ٥٢٥ ق.م انتهى عهد مميز في تاريخ الحضارة المصرية، وهو عهد المتعبدات الإلهيات اللاتي حكمن جنوب مصر حكمًا مشتركًا مع ملوك مصر الشرعيين لأكثر من

قرنين من الزمان، وإن كان حكمهن لم يتميز بإنجازات سياسية خاصة، بل بسياسة دينية داعمة للملك الحاكم، ولم نعرف متى ماتت «عنخنسنفريبرع»، وهل ماتت ميتة طبيعية بنهاية حكمها الذي واكب دخول «قمبيز» مصر؟ أم بعد ذلك؟! ودفنت في مدينة «هابو».

شكل (١٥): تمثال «إمنرديس الأولى» من الألبستر

شكل (١٦): للمتعبدة الإلهية «شبنوبت الثانية» في هيئة أبي الهول

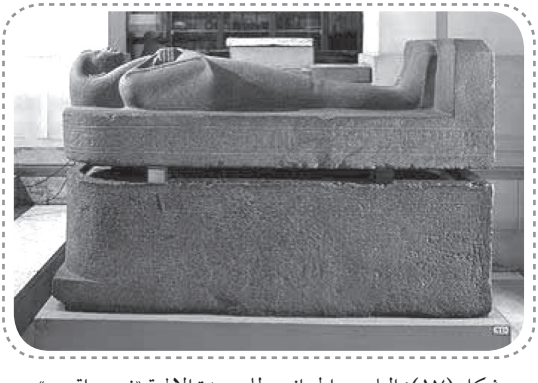

شكل (١٧): التابوت الجرانيت للمتعبدة الإلهية «نيت-إقرت»

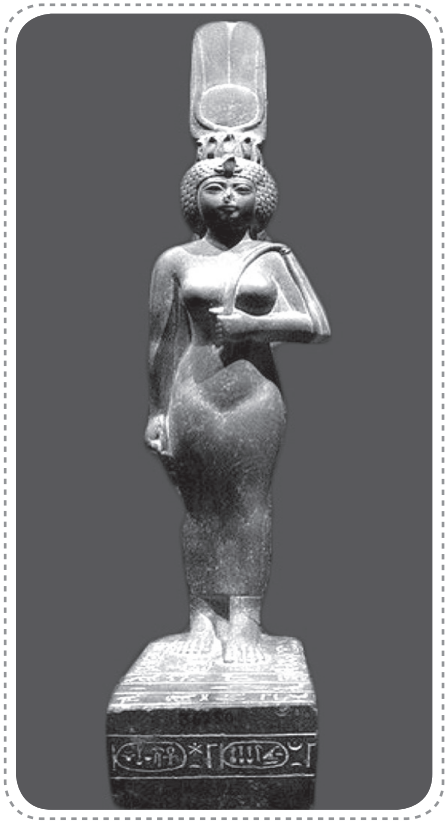

شكل (١٨): تمثال من الشست «عنخنسنفريبرع»

الملكات البطلميات

في العـصر البطلمـي كان هناك طابع جديـد للحكم من قبـل حكام البطالمـة، حاولوا فيه جاهدين التقرب للشـعب المـصري بالحفـاظ عـلى معتقداتـه وعاداتـه، وبمسـاعدة الكهنـة تأثـروا بهـا وأثـروا فيهـا، وانعكسـت عـلى صورة الحكـم في القـصر الملكي.

ومـع النظـام الجديـد للبطالمـة يمكننـا القـول: إن ملـكات العـصر البطلمـي تمتعـن بأكثـر ممـا تمتعـن بـه ملـكات العصر الفرعـوني مـن شراكـة في الحكـم مكنتهـن في بعـض الأحيان مـن الحكـم المسـتقل، وبخاصـة مـن حكمن منهـن من خلال حكـم أبنائهـن كحاكـم مشـارك، وبالتـالي حمل هـؤلاء الملوك اللقـب الطقـسي «الإلـه المحـب لأمـه»، وهـم: «بطليمـوس السـادس» ابن «كليوباترا الأولى»، و«بطليموس التاسـع» ابن «كليوباتـرا الثانيـة»، و«بطليمـوس العـاشر» ابـن «كليوباتـرا الثالثـة»، و«قيـصرون» ابـن «كليوباتـرا السـابعة»، إلا أنهـن

جميعًا حاولن التشبه بالملكة «أرسنوي الثانية» التي تعد من أقوى الملكات البطلميات، حتى وإن لم تحصل على لقب «حوري».

الملكة «أرسنوي الثانية»

الملكة «أرسنوي الثانية» هي بنت الملك «بطليموس الأول» مؤسس الدولة البطلمية في مصر من زوجته «برنيكي الأولى»؛ ولدت عام ٣١٦ ق.م، واتخذت «أرسنوي الثانية» مكانة استثنائية داخل الأسرة، كملكة وكإلهة عبدت، متشبهة بإيزيس، وتأثرت بملكات مصريات خاصة من عصر الدولة الحديثة، كالملكة «أحمس نفرتاري» من الأسرة الثامنة عشرة التي حظيت بمكانة خاصة في عهد زوجها وأخيها الملك «أحمس»، وبذلك لعبت «أرسنوي الثانية» على المشاعر المصرية الدينية لتعزيز مكانة الأسرة البطلمية وحكمها، وهو الدور الذي لعبه شقيقها وزوجها «بطليموس الثاني» للوصول إلى هذا الهدف.

علم «بطليموس الثاني» جيدًا ما كان للديانة المصرية القديمة وكهان مصر، وما كان لعبادة «إيزيس وأوزيريس»

مـن مكانـة في نفـوس الشـعب المـصري، فسـار عـلى نهـج الفراعنـة والتقاليـد الملكيـة الدينيـة لإرضـاء طبقـة الكهـان ورغبـات الشـعب المـصري، فقد تـزوج من أخته «أرسـنوي الثانيـة» ليحفـظ الـدم الملكي الإلهـي وكان أصغر منها سـنًّا، ومـا أن اسـتقرت معه في القـصر الملكي حتى ظهـر طموحها الجامـح الـذي لا يتقيد بقانـون أو عرف أو أخـلاق، ودبرت لزوجـة أخيهـا الأولى «أرسـنوي الأولى» حتـى تمكنـت مـن الإيقـاع بينهـما فطلقها، ثم دبـرت للزواج به لتمكن لنفسـها مـن حكـم مـصر، وأوحت لأخيهـا «بطليمـوس الثـاني» أنه بذلـك يحيـي الأعـراف والشـعائر المصريـة، وقد رسـمت له خطـة التشـبه بالفراعنـة في كل أحوالهـم الدينية.

عندمـا تـزوج «بطليمـوس الثـاني» مـن أخته «أرسـنوي الثانيـة» كان خروجًـا عـلى التقاليـد اليونانيـة التـي لم تعـرف زواج الإخـوة، وتقربًـا مـن المصريـين، وتشـبهًا بفراعنـة الدولـة الحديثـة، وكـما كان متأثـرًا بعبـادة «إيزيس وأوزيريـس»، فرفـع مـن مكانـة أختـه الملكـة «أرسـنوي الثانيـة» لمكانـة «إيزيـس»، وعـلى الرغـم مـن أنهـا لم تحـظ بألقـاب ملكيـة حاكمـة ولم تحكـم معـه في حياتـه بشـكل مبـاشر فإنهـا أصبحـت أشـهر وأقـوى امـرأة في عصرهـا،

ولعبت دورًا كبيرًا في سياسة «بطليموس الثاني» الداخلية والخارجية، كما كانت القدوة الملهمة لملكات الأسرة البطلمية، بخاصة لمكانتها العالية التي حظيت بها إلى جوار «بطليموس الثاني» الذي أحبها حبًّا شديدًا سمح لها بالتدخل في شئون الحكم، ورفعها كإلهة تعبد في حياتها وبعد وفاتها، وبنى لها معبدًا باسم «أرسنوي-أفروديتي» في الإسكندرية.

بذلك كانت «أرسنوي الثانية» أول سيدة من البيت البطلمي خرقت التقاليد اليونانية بأن تزوجت من أخيها «بطليموس الثاني» ملك مصر، وهذا الفعل الغريب عن التقاليد والأعراف اليونانية، والتحول لتقبل هذا الزواج والإقناع به بل والاستفادة منه بأنه يجوز باعتبارهما إلهين «كأوزيريس وإيزيس»؛ يظهر أن شهوة الملك والحكم قد تمكنت من «أرسنوي الثانية» فسولت لها بأن الغاية تبرر الوسيلة ولا تعدمها، ورأت أن الذكاء والأنوثة والمكيدة والحب ولو كان متكلفًا غير حقيقي هي أسلحة مشروعة للمرأة الطموحة، وبها تمكنت «أرسنوي» من قلب أخيها وسيطرت على عقله، حتى أنه شغف بها حبًّا ومكن لها في الحكم معه،

وسك عملة تحمل صورتهما معًا وبالحجم نفسه، بل وعملة خاصة بها وحدها، كما أطلق اسمها على إحدى مقاطعات مصر الكبرى وهي الفيوم «مدينة أرسنوي/ فيلادلفوس»، لكن الأدهى من ذلك هو رفع مكانتها إلى مصاف الآلهة في حياتها وقبل وفاتها، ليس ليتعبد لها الشعب المصري والسكندري فحسب، بل تعبد لها «بطليموس الثاني» نفسه.

مما سبق وعلى الرغم من أن الملكة «أرسنوي الثانية» لم تحمل ألقابًا ملكية صريحة؛ فإن دورها في الحكم كان واضحًا، وقد باشرت سياستها من خلف زوجها، ووضعت بذلك سياسة وتقليدًا جديدًا تسير على نهجه الملكات البطلميات من بعدها.

الملكة «برنيكي الثانية»

«برنيكي الثانية» هي بنت الملك «ماجاس» ملك برقة والملكة «أباما»، كان «ماجاس» أخًا غير شقيق لـ«بطليموس الثاني»، وكان ينوب عن الملك «بطليموس الأول» في حكم برقة، وفي الإطار السياسي بين مصر وبرقة اتفق الأخوان على المصاهرة السياسية بأن يتزوج

الأمير «بطليموس» ولي عهد «بطليموس الثاني» من الأميرة «برنيكي» بنت «ماجاس»، إلا أن «ماجاس» مات عام ٢٥٨ ق.م، وتوقف مشروع الزواج برفض «أباما» أرملة «ماجاس» إتمام هذا الزواج وخطبت لابنتها «دمتريوس» الأخ غير الشقيق لملك «مقدونيا»، الذي كان يلقب بـ«دمتريوس الجميل» لشدة وسامته وجماله، وعند وصول العريس الجديد إلى برقة وقعت الأم «أباما» في حبه واستخلصته لنفسها، وافتضح عشقهما، وهو ما لم ترض به الأميرة «برنيكي»، فدبرت لهما وقتلتهما معًا في فراش والدتها، وكان هذا عام ٢٥٥ ق.م، وتمكنت «برنيكي» صاحبة الرأي في نفسها من أن تسيطر على زمام الأمور في برقة وتحكمها منفردة قرابة تسع سنوات، وقامت على تنفيذ خطة أبيها السابقة وتزوجت من «بطليموس الثالث» في العام نفسه الذي أصبح فيه ملكًا على مصر في عام ٢٤٦ ق.م.

ما إن جلس «بطليموس الثالث» على العرش حتى أعد للحرب على سوريا فيما يعرف بالحرب السورية الثالثة، التي مكث فيها قرابة عامين، وقد ترك زوجته

«برنيكـي الثانيـة» خلفه في مصر، فأدارت شـئون الحكم في مـصر، حتى أنهـا سـكت عملة باسـمها.

هـذا الوضع الخـاص لـ«برنيكـي» جعلهـا تظهر كملك مشـارك مـع زوجهـا بعـد عودتـه مـن سـوريا، وهـو ما لم يكـن ليتحقق لـولا تفهـم وموافقـة «بطليمـوس الثالث»، وتفهـم الملـك لهـذا لم يكـن ليتأتـى إلا مـن خـلال تحقيـق «برنيكـي» لقدرتهـا، التـي ظهـرت أثنـاء حكمهـا المنفـرد لبرقـة بعـد وفـاة والدتهـا، وأيضًـا في مـصر أثنـاء غيـاب زوجهـا في سـوريا، فقـد تمكنت مـن حماية البـلاد، ووقفت إلى جـوار زوجهـا عنـد عودتـه بالنصيحـة والفعـل.

الملكة «كليوباترا الأولى»

«كليوباترا الأولى» هي بنت «أنتيوخوس الثالث» ملك سوريا، وأمها الملكة «لاؤديكي الثالثة»، كانت خطبتها إلى «بطليموس الخامس» السبيل إلى سياسة وفاق بين مصر وسوريا، بعد صراعات عدة أنهكت البلدين بخصوص ملكية جوف سوريا، وتمت الخطبة في عام ١٩٥ ق.م. ضمن اتفاق سياسي للمصالحة بين البلدين، وتم الزواج في العام التالي، وكان عمر «بطليموس الخامس» ١٦ سنة آنذاك،

وكانت «كليوباترا» طفلة عمرها ١٠ سنوات، وكانت تعرف بالسورية لأصلها ونسبها السوري.

حضرت «كليوباترا» إلى مصروجلبت مهرها معها وهو عائدات منطقة جوف سوريا التي كانت سببًا رئيسًا في الخلاف والصراع بين البلدين على مدى عقود طويلة سابقة، لذلك لقبت العروس، التي ستصبح «كليوباترا الأولى» ملكة مصر بـ «حاملة المهر»؛ حيث كانت العادة - آنذاك - أن تحمل الفتاة مهر الزواج وليس الرجل.

اعتبارًا من عصر «بطليموس الخامس» و«كليوباترا الأولى» وحتى نهاية عصر «بطليموس الثاني عشر» وبداية حكم «كليوباترا السابعة» لا توجد للحكم البطلمي أي مظاهر سياسية أو اقتصادية أو حتى اجتماعية تظهر عظمة ومكانة مصر، ولا يظهر فعل هؤلاء الحكام إلا بذكر أسمائهم وألقابهم في تأريخ الوثائق الحكومية، وعلى الرغم من وجود شبه نهضة في الفنون والعمارة؛ فإنها لم تلغ ما اتسم به هذا الوقت من ضعف سياسي بل وتبعية ومهادنة لروما، وفقد للمكانة السياسية التي كانت تتمتع بها مصر في النصف الأول من هذه الأسرة.

مات «بطليموس الخامس» مسمومًا عام ١٨٠ ق.م، وترك ولدين وبنتًا صغار السن، وتولى بعده «بطليموس السادس»، وهو لا يزال طفلًا لا يزيد عمره على ٦ سنوات تحت وصاية أمه الملكة «كليوباترا الأولى»، التي عملت كل ما في وسعها للمحافظة على ملكه، ولم تسمح لأحد غيرها بأن يدير شئون البلاد الداخلية والخارجية، فارتفعت مكانتها ومكنت لنفسها بذلك للحكم باسم ابنها الملك الطفل، وظهر دورها كحاكمة بشكل واضح في الوثائق الديموطيقية التي أبرزت الحكم المشترك لـ«كليوباترا الأولى» وابنها «بطليموس السادس»، بل كانت تسبقه في النص: الفرعونان «كليوباترا الأولى»، الأم، الإلهة الظاهرة، مع ابنها «بطليموس» ابن «بطليموس» الإله الظاهر». وبذلك تكون «كليوباترا الأولى» أول ملكة بطلمية تحكم مع زوجها، وتشارك في الحكم مع ابنها، كما سكَّت «كليوباترا الأولى» عملة باسمها منفردة بما لا يدع مجالًا للشك من انفرادها بالحكم بصورة رسمية.

كان همُّ «كليوباترا» عندما أخذت مقاليد الحكم في يديها أن تبذل كل جهودها في رعاية أطفالها بنفسها والحفاظ على العرش لبكرها، وقد عملت طوال مدة حياتها على أن تبقي مصر بعيدة عن الحروب، وهي

سياسة أثبتت ذكاءها وبُعد نظرها في إدارة شئون البلاد، وكانت لا تزال صغيرة في ريعان الشباب، وقد بدأت عهد ابنها بإظهار سياسة الود تجاه سوريا التي يحكمها أخوها «سليوكوس الرابع»؛ مما وضع حدًّا للتوتر الذي نشب بين البلدين في أواخر عصر «بطليموس الخامس»، وكذلك بمهادنة روما ومحالفتها والبقاء على الولاء لها للمحافظة على ملك ابنها.

الملكتان «كليوباترا الثانية والثالثة»

يتحدث هذا الجزء عن فترة صعبة ومحيرة من تاريخ الأسرة البطلمية، فمن عصر «بطليموس السادس» و«كليوباترا الثانية» وحتى عصر «بطليموس العاشر» و«كليوباترا الثالثة» لا نستطيع إبراز دور كل حاكم منفردًا أو نتكلم عن سيرته وحده، فتداخل الحكم والشراكة والتأثير والتأثر والصراعات الأسرية بينهم، وكذلك المواءمات والتصالح تجعلنا نتحدث عن هذه الفترة مرتبطة ببعضها البعض، وهي تشمل حكم سبعة ملوك، منهم سيدتان: هما الملكتان «كليوباترا الثانية والثالثة»، وخمسة رجال وهم الملوك: «بطليموس السادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر».

ويمكننا القول إن الملكتين كانتا صاحبتا الدور الرئيس في إدارة شئون البلاد والمحرك لكثير من القرارات السياسية، بل وكانتا المحافظتين على العرش والوصاية عليه في بعض الفترات؛ فلا يمكن تفسير أو فهم هذا العصر الممتد من عام ١٧٠ ق.م، حتى عام ١٠١ ق.م، دون فهم الدور الطموح، والعمل على حفظ الملك، وإظهار قوة وفاعلية كل من الملكتين في الحكم، ووضوح الهيمنة في بعض الفترات على العرش وعلى سلطة الملك.

بعد وفاة الملكة «كليوباترا الأولى» عام ١٧٦ ق.م، تمكن رجال القصر الذين كانوا ملتفين حول ابنها الملك الطفل «بطليموس السادس» من الإحاطة به، وفي عام ١٧٥ ق.م، أشاروا عليه بالزواج من أخته «كليوباترا» التي عرفت بـ «كليوباترا الثانية»، وأعلن نفسه ملكًا، وكانت أخته وزوجته «كليوباترا الثانية» أصغر منه سنًّا، وقد أصبحا منذ زواجهما يعبدان باسم الإلهين «فيلوماتور» أي المحبين لوالدتهما، وبذلك أحيا الزوجان التقاليد الفرعونية مرة أخرى بما يؤكد شرعيتهما في حكم البلاد طبقًا لتلك التقاليد، وقد بدأ الملك وزوجته لدعم هذه الشرعية باستكمال مشاريع بناء المعابد المصرية.

ولم تهدأ الأمور طويلًا حتى ظهرت العديد من الخلافات بين الملك «بطليموس السادس»، وأخيه «بطليموس الثامن» الذي يحكم في برقة باسمه، وهنا بدأ ظهور دور الملكة الصغيرة «كليوباترا الثانية» زوجة «بطليموس السادس» وشقيقة الملكين التي لعبت دورًا مهمًّا، وعملت كل ما في وسعها لإعادة السلام والتفاهم بين الأخوين، حتى اتفق الإخوة على أن يحكموا سويًا، أي حكم ثلاثي لرجلين وامرأة، وكان ذلك ١٦٨ ق.م، ومنذ ذلك التاريخ بدأ لـ«كليوباترا الثانية» دور في حكم البلاد استمر حتى تاريخ وفاتها عام ١٠٨ ق.م، حكمت فيها إلى جوار أخويها «بطليموس السادس» و«بطليموس الثامن»، وإلى جوار ابنيها «بطليموس السابع» و«بطليموس التاسع»، بل وتمكنت أيضًا من حكم البلاد منفردة في عام ١٣٢/ ١٣١ ق.م.

وإذا ما تتبعنا سيرة الملكة «كليوباترا الثانية» نجدها سيدة ذكية طموحة، صاحبة سطوة في بعض الأحيان لكنها منكسرة وضعيفة في أحيان أخرى، إلا أنها تغلبت دائمًا على كل المحن التي مرت بها وسايرت الأحداث حتى لا تفقد ملكها، وكانت صاحبة رأي في العرش وفي

السياسـة، وحظيـت بأطـول مـدة حكـم في تاريـخ الأسرة البطلميـة، وهي شـخصية جدلية بـما تعنيه الكلمـة، يمكن لدارس سـيرتها أن يعجب بها وأن يشـفق عليهـا في الوقت نفسـه، يراهـا سـيدة كل عـصر ويراهـا ضحيـة لطموحها، إلا أننـا يمكـن أن نخـرج مـن سـيرتها بأنهـا كانـت امـرأة قويـة تمكنت منها شـهوة الحكم، سـيدة طموحـة وصاحبة رأي ورؤيـة مكنت لنفسـها وحافظت على العرش لنفسـها ولشريكهـا في مواقـف عدة.

مـا إن مـات الملـك «بطليمـوس السـادس» حتـى سـنحت الفرصـة لأخيـه «بطليمـوس الثامـن» بمـوت أخيـه وصغـر الوريـث «بطليمـوس السـابع»، فتواصل مـع أختـه «كليوباترا الثانيـة» وأرملـة أخيـه واتفقـا عـلى الـزواج عـلى أن يرعـى «بطليمـوس الثامـن» الملـك الطفـل، ومـا أن تـم الـزواج إلا وقـد ظهـرت نوايـا «بطليمـوس الثامـن» بـأن يقلـص مـن نفوذهـا وينتـزع العرش من الطفـل، وليس هذا بغريـب، إذ إن شـخصية بطليمـوس الثامـن طموحة غـادرة لا تعدم الوسـيلة للوصـول إلى هدفهـا ولـو عـلى حسـاب شرعيـة ابـن أخيـه «بطليمـوس السـابع»، وعـلى حسـاب أختـه الملكـة «كليوباترا الثانيـة» ولـو عـلى أسـنة الرمـاح وسـفك الدمـاء.

ما أن مكن لنفسه حتى قام بقتل الملك الطفل «بطليموس السابع»، وأجبرت «كليوباترا الثانية» على تحمل الصدمة ومعايشتها، وفي عام ١٤٤ ق.م، أنجبت «كليوباترا الثانية» ابنًا من «بطليموس الثامن» وقد خافت عليه من أبيه، وبخاصة أن الحادث البشع بقتل ابنها الأول قد أثار في نفسها عدم الثقة في هذا الرجل وغدره وخيانته، وعلى الرغم من أن هذه الأحداث قد سلبت كل شعور إنساني للملكة «كليوباترا الثانية» تجاه «بطليموس الثامن»، فإنها لم تسلب إرادتها في استمرار الحياة والمهادنة والتعايش أملا في أن تحفظ العرش لابنها المولود الجديد «بطليموس التاسع» فيما بعد ومن خلاله البقاء على سلطانها.

والواقع أن «بطليموس الثامن» لم يكن في مقدوره أن ينتزع سلطات أخته «كليوباترا الثانية»، فقام بالزواج من «كليوباترا الثالثة» بنت أخته وزوجته «كليوباترا الثانية» في محاولة لينزع منها حق الصدارة ويمنحه لابنتها زوجته الجديدة، ومن ثم نشأ نظام غريب، ولأول مرة في تاريخ الحضارة المصرية يشارك على عرش مصر رجل وامرأتان، بحكم ثلاثي؛ فكان يحكم الملك والأخت الملكة وهي «كليوباترا الثانية» والملكة الزوجة

وهـي «كليوباتـرا الثالثـة»، وبذلـك فـرق بـين الملكتـين باللقبـين الملكـة الأخـت، والملكـة الزوجـة.

تتحـول الأوضـاع في القـصر الملكـي إلى صـورة يمكـن للمـرء أن يتخيلهـا بوجـود ضرتين همـا ملكتـان، وفي واقع الأمـر أم وابنتهـا، لـكل واحـدة منهـما رغباتهـا ومخططاتهـا لتكـون صاحبـة الكلمة والنفـوذ في القـصر، وبخاصة بعد أن أنجبـت «كليوباتـرا الثالثـة» ابنهـا «بطليمـوس العاشر» فيـما بعـد، وكان الطموح الممـزوج بالغيرة لا بـد أن يقع بين الملكتـين، ومـن ثـم يولـد التنافـس بينهـما، وأن الـذي يفيد منـه هـو الملـك العـاتي الـذي كان يضـارب الواحـدة منهما بالأخـرى، وقـد أرخت الوثائق الرسـمية بالحكـم الثلاثي، وذكـروا بالترتيـب «بطليمـوس الثامـن» فـ «كليوباتـرا الثانيـة» ثـم «كليوباتـرا الثالثة».

مـات «بطليمـوس الثامـن» عـام ١١٦ ق.م، وترك الأمر في مـصر دون وصيـة لمـن يحكـم بعـده، وهـو مـا أشـعل الـصراع مـن جديـد في القـصر الملكـي بـين فريقـين، الأول مـع الملكـة «كليوباتـرا الثانيـة» وابنها «بطليموس التاسـع»، والثاني مـع «كليوباتـرا الثالثة» وابنها «بطليمـوس العاشر».

تمكنت الملكة «كليوباترا الثانية» من إجلاس ابنها «بطليموس التاسع» على العرش بما لها من مكانة وسلطان ولأنها أم الابن الأكبر، وبمعاونة فريقها من النبلاء في القصر ، وكذلك دعم يهود الإسكندرية، وبالاتفاق مع أمه «كليوباترا الثانية» تزوج من أخته «كليوباترا الرابعة»، ثم تزوج من أخته الصغرى «كليوباترا الخامسة» سليني. أما «بطليموس العاشر» الإسكندر، فقد ترك مصر إلى قبرص، واستمر في حكمها، وكان يتحين مع أمه «كليوباترا الثالثة» الفرصة ليجلس على عرش مصر.

بعد وفاة «كليوباترا الثانية» تمكنت «كليوباترا الثالثة» من أن تحكم مصر، فتسلطت على الملك الضعيف «بطليموس التاسع» قرابة عام كانت الأصعب في حياة هذا الملك، فاستطاعت أن تقوض حكمه وأجبرته على اتباع مشيئتها، حتى مكنت لنفسها من العرش، ثم بدأت في محاولات استرجاع ابنها «بطليموس العاشر» من قبرص إلى مصر، وهو ما تحقق لها في عام ١٠٧ ق.م.

بعد أن جلس «بطليموس العاشر» على العرش بمساعدة أمه «كليوباترا الثالثة» بدآ معًا حكمًا مشتركًا، إلا أن الأم كانت

لها الكلمة المسموعة في القصر، والحاكم الفعلي للبلاد ، حتى كان يسبق اسمها اسم ابنها الملك في الوثائق الرسمية، وفي عام ١٠٥/ ١٠٤ ق.م، قامت بنقلة كبيرة في مركزها كملكة حاكمة واتخذت ولأول مرة في الأسرة البطلمية وظيفة كاهن «الإسكندر الأكبر» ، وهي الوظيفة الخاصة بالملك الحاكم منذ إنشائها، وبذلك أرادت أن ترتفع مكانتها على مكانة ابنها «بطليموس العاشر»، ثم قادت بنفسها حربًا سورية في عام ١٠٣ ق.م، إلا أنها لم تفض لشيء إلا بمحاولة للمهادنة والتصالح بين البلدين، وما أن انتهت الحرب السورية حتى بدأ الخلاف بين الملك وأمه المتسلطة على العرش، حتى ضاق بها وقتلها عام ١٠١ ق.م، وتنتهي حياة واحدة من أكثر نساء الأسرة البطلمية استبدادًا.

ثم تزوج «بطليموس العاشر» من «كليوباترا برنيكي الثالثة»، ابنة أخيه «بطليموس التاسع» من زوجته الأولى «كليوباترا الرابعة».

الملكة «كليوباترا برنيكي الثالثة»

«كليوباترا برنيكي الثالثة» بنت الملك «بطليموس التاسع» الكبرى من أخته وزوجته الأولى «كليوباترا

الرابعة» وولدت عام ١٢٠ ق.م. تزوجها «بطليموس العاشر الإسكندر الأول» عام ١٠١ ق.م. بعدقتل أمه «كليوباترا الثالثة»، وكانت «برنيكي الثالثة» مجرد الملكة الزوجة الشريكة في العرش وليست المسيطرة عليه، وظهرت في النقوش إلى جانب زوجها حسب تقاليد وعادات الأسرة البطلمية إلى أن خرج بطليموس العاشر من مصر طريدًا عام ٨٨ ق.م.

بعد زواجهما بقرابة عشر سنوات في عام ٩١/ ٩٠ ق.م ذكرت إحدى البرديات أن «برنيكي الثالثة» اتخذت اسم «كليوباترا» كاسم للعرش إضافة إلى «برنيكي»، وقد ظهر اسمها في تأريخ الوثائق الرسمية خلف اسم زوجها، كما ظهر لها منظر فريد على الجدار الخلفي لمعبد «إدفو» مقدمة القربان لـ «حتحور» بحجم كبير بارتفاع جِدار المعبد، في وضع مميز كملكة حاكمة يمكنها الظهور منفردة في منظر مقابل لشريكها «بطليموس العاشر» في شعائر المعبد.

في أثناء فترة الحكم الثانية للملك «بطليموس التاسع» فيما بين ٨٨-٨١ ق.م، أصبحت ابنته «برنيكي

الثالثة» شريكة معه في الحكم، ثم حكمت بعد وفاته منفردة قرابة عام حتى تزوجت من «بطليموس الحادي عشر» عام ٨٠ ق.م، الذي قتلها بعد ١٩ يومًا فقط من الزواج؛ حتى يخلص له العرش، إلا أن الشعب السكندري ثار عليه وقتله في اليوم نفسه.

الملكتان «كليوباترا السادسة ترافينا» و«برنيكي الرابعة»

اختلف المؤرخون في نسب «كليوباترا السادسة» ترافينا، فيرى البعض أنها بنت الملك «بطليموس التاسع» من زوجته «كليوباترا الخامسة سيليني»، وهي بذلك تكون أخت الملك «بطليموس الثاني عشر» الذي تزوجت به، ويرى فريق آخر من المؤرخين أنها بنت «بطليموس العاشر» من «برنيكي الثالثة». كانت ملكة حاكمة تزوجت من «بطليموس الثاني عشر»، وأنجبت له كبرى بناته «برنيكي الرابعة».

منذ نهاية ٦٩ ق.م اختفى اسم «كليوباترا السادسة» في الوثائق البطلمية، وكان سبب هذا - على الأرجح - النزاع الذي شب بين الزوجين الملكين، وفي هذه الأثناء ربما جلست «برنيكي الرابعة» بنت «كليوباترا السادسة» إلى جوار

أبيهـا عـلى العـرش، وقد ذكـر عنهـا «سـترابون» أن «برنيكي» هـي الابنـة الشرعيـة من البنـات الثـلاث لـ«بطليمـوس الثاني عـشر»، وهـذا يعني أن البنتـين الأخيرتين «كليوباترا السـابعة» و«أرسـنوي الرابعـة» كانتـا غـير شرعيتين.

وسـاءت الأحـوال في مـصر وانفجـر الشـعب السـكندري غاضبًـا ضـد «بطليمـوس الثـاني عـشر» حتى طـرد وفـرَّ هاربًـا مـن مـصر لاجئًـا إلى رومـا، وكان ذلـك عـام ٥٨ ق.م، بذلـك تمكنـت الملكـة «كليوباتـرا ترافينـا» مـن اسـتعادة مكانتها بمسـاعدة الإسـكندريين، وحكمت مـصر مـع ابنتهـا «برنيكـي الرابعـة»، التـي سـمت نفسـها «كليوباتـرا برنيكـي» كلقب عرش جريًا عـلى عادة ملكات الأسرة منـذ عهـد «كليوباتـرا الأولى»، وخرجـت الوثائـق الرسـمية تؤرخ باسـميهما معًا في عـام ٥٨/ ٥٧ ق.م، وبعد عـام واحـد فقـط مـن الحكـم المشـترك للملكتـين ماتـت الملكـة الأم عـام ٥٧ ق.م، وربـما ماتـت مسـمومة بتدبـير مـن ابنتهـا «برنيكي الرابعـة»، انفـردت «برنيكـي الرابعة» بالحكـم لفـترة قصـيرة، وقـد أرخـت الوثائـق باسـمها أو باسـم والدهـا في بعـض البرديـات في الوقـت نفسـه.

على الجانب الآخر ما زال «بطليموس الثاني عشر» يتودد لأعضاء مجلس الشيوخ ويقدم لهم الرشاوي والوعود بالمزيد عند عودته إلى مصر، وفي وقت مبكر من عام ٥٥ ق.م عاد «بطليموس الثاني عشر» مرة أخرى على عرش مصر بالقوة العسكرية، وكانت المرة الأولى التي تدخل فيها قوات عسكرية رومانية إلى مصر، ودخل «بطليموس الثاني عشر» إلى الإسكندرية، وقام بتنفيذ حكم الإعدام في ابنته «برنيكي الرابعة» وأتباعها.

الملكة «كليوباترا السابعة»

«كليوباترا السابعة» بنت «بطليموس الثاني عشر»، ولدت أغلب الظن من أم مصرية كانت بنت كبير كهنة «بتاح» في «منف»، ولدت في الإسكندرية عام ٦٩ ق.م، وإن كان كثير من الباحثين يرى أن أمها هي الملكة «كليوباترا السادسة»، إلا أن كثيرًا من الشواهد تشير إلى الرأي الأول، فإن صح هذا - وهو عندي كذلك - تكون «كليوباترا السابعة» أول حاكم من الأسرة البطلمية يجري في عروقه دماء مصرية.

تمتعت «كليوباترا» بتعليم ممتاز، ومالت مع ميول والدها في حبه واهتمامه بالثقافة والموسيقى وجلب العلماء والفلاسفة إلى البلاط الملكي ومجالستهم ومناقشتهم، وهنا تجدر الإشارة إلى أصل «كليوباترا السابعة» المزدوج كونها بطلمية الأب ومصرية الأم، وذلك كان سببًا لافتخار «كليوباترا» القوي بأنها صاحبة العرقين الكريمين الهلينستي والمصري، وزادت من افتخارها بمصريتها، وربما كان ذلك سببًا في الاستزادة في تعليمها وثقافتها المميزة كحفيدة لكبير كهنة منف، وكما ذكر «بلوتارخ» أنها كانت تتحدث المصرية بطلاقة بخلاف آبائها البطالمة.

كانت «كليوباترا» ابنة محببة ومقربة من أبيها «بطليموس الثاني عشر»، وأغلب الظن أنها رافقته في فترة نفيه من مصر، وسافرت معه من مصر إلى أثينا ثم إلى روما، وعايشت معه فترات صعبة في المنفى وبعد عودته إلى مصر، وهو ما جعله يرفعها إلى جواره على العرش وكان هذا عام ٥٢ ق.م، أي عام واحد فقط قبل وفاته.

مـات «بطليمـوس الثـاني عشر» وقـد ترك وصيـة بضمان رومـا بجلـوس ابنـه الكبـير «بطليمـوس الثالث عـشر» على العـرش إلى جـوار أختـه «كليوباتـرا السـابعة»، وجلـس الشريـكان عـلى عـرش أبيهما وحكـما معًا منذ عـام ٥١ ق.م، وبذلـك جلسـت عـلى عـرش مـصر أشـهر ملـكات مـصر والعـالم القديم وأكثرهن جدلًا بـين المؤرخين والمتخصصين، وقـد تجمَّـع فيهـا طموح لم يسـبق لملكة مـن قبـل، فيمكننا أن نقـول: اجتمعـت في «كليوباتـرا السـابعة» صفـات ملـكات عـدة مـن أشـهر ملـكات الحضـارة المصريـة، فأخـذت مـن صفـات «حتشبسـوت» و«نفرتيتـي» و«أرسـنوي الثانيـة»، فهي الشـابة الجميلـة القوية الذكيـة الطموحة المحبـة الرقيقة التـي لا تعـدم الحيلـة للوصـول إلى هدفها.

شاركت «كليوباترا» ستة حكام، هم: أبوها «بطليموس الثاني عشر»، وشقيقاها «بطليموس الثالث عشر» و«الرابع عشر»، وابنها «قيصـرون»، وعاشقـاها «يوليوس قيصر» و«مارك أنطونيو»، وبخـلاف شـراكتها مـع أبيـها، فقد ظهرت عليهـم، وكـانت صـاحبة الكـلمة العـليا والرأي والحكم مع الخمسة الآخـرين، وارتبط اسمها باسم اثنين منهم، هما: «يوليوس قيصر» و«مارك أنطونيو» ونسجت

سيرتها بقصص الحب الذي لا يعرف التاريخ له مثيلًا، إلا أنه بدراسة سيرة «كليوباترا السابعة» فلا يسعنا القول إلا أن «كليوباترا» لم تحب غير «كليوباترا»، وقد استخدمت سلاحي أنوثتها وذكائها وهما أقوى أسلحة المرأة التي إن مكنت لنفسها كانا من أمضى الأسلحة الفتَّاكة. وبهما مكنت «كليوباترا» لنفسها في قلوب عاشقيها أولًا، ثم في السلطة والحكم ثانيًا، بالإضافة إلى باقي أسلحة المرأة القاتلة من كبرياء ومكيدة ونعومة ودلال ومكر، وربما تسلطت في الحكم إن تطلب الأمر وسمحت الظروف لذلك، حتى إنها طوعت التقاليد المصرية الدينية لخدمة أغراضها، وخرجت عنها في بعض الحالات إذا تعارضت مع طموحها، وكانت بالنسبة لها الغاية تبرر الوسيلة، ولم تعدم الحيلة للوصول إلى أهدافها حتى تروي شهوتها للحكم، وتمكنت في فترة حكمها من أن تحكم إمبراطورية لم يستطع آباؤها منذ «بطليموس الأول» مؤسس الأسرة وحتى «بطليموس الثاني عشر» من أن يصلوا إليها بالعديد من الحروب وباستخدام السيف.

تميزت «كليوباترا» بخاصية لم يتميز بها غيرها من ملوك الأرض، فهي بحق ملكة ذات ثلاث ثقافات،

إغريقيـة ومصريـة ورومانيـة، وبـصرف النظـر عـن عـدم التجانـس الثقـافي الـذي نوقـش كثـيرًا عنـد الحديـث عن شـخصية «كليوباتـرا»، فإنهـا تعلمـت جيـدًا، وثقفـت نفسـها بـما جعلهـا شـخصية جذَّابـة لبقـة عذبـة الحديـث سـاحرة القلـوب وأخـاذة لعقـول كل مـن يقـترب منها أو يتعامـل معهـا، بالإضافة إلى ملامحهـا المليحـة ذات الأنوثة الطاغيـة، وحسـب الكُتَّاب القدامـى فقد قدمـوا كليوباترا بمظاهـر متباينة، فوفقًا لـ«كاسـيوس ديو» الـذي عاش فيما بـين ١٥٥و ٢٣٥م، كانـت جميلة جدًّا، حتى إنهـا يمكن أن توقـع ألد أعـداء المرأة في شـباكها، وذكر «بلوتـارخ» الذي عـاش فيـما بـين ٤٦ و١٢٠م: أن جمالها لم يكـن لا يضاهى، لكنهـا كانـت تعطـي انطباعًا كبـيرًا على الرجـال من خلال تعلمهـا ومحادثتهـا الجذَّابـة وأخلاقهـا الجميلـة»، كما عرف عـن علـم وثقافـة «كليوباتـرا» أنهـا كانت تتحـدث العديد مـن اللغـات، كاللاتينيـة والعربيـة والعبريـة والسريانيـة والميديـة، حتـى إنهـا كانـت تخاطـب كل إنسـان بلغتـه، بما يشـير إلى أنهـا كانـت عـلى درايـة بثقافـات هذه الشـعوب.

ومـع أن «كليوباتـرا السـابعة» كانـت واحدة مـن أقوى حـكام مصر، وعـلى الرغم مـن أنها كانـت القوة المسـيطرة

في مـصر وصاحبـة الحكـم الفعـلي بجانـب شركائهـا، فإن عصرهـا لم يهنـأ بالهـدوء ولم تهنأ بالسـكينة.

حاولـت «كليوباتـرا» أن تحكـم وحدهـا مـن اليـوم الأول لجلوسـها عـلى العـرش إلى جـوار أخيها، وبـدأ ذكر «كليوباتـرا» وحدهـا دون ذكـر شـقيقها، كانـت شـخصية «كليوباتـرا» بـكل مـا اكتسـبته مـن خـبرة مـع ذكائهـا وطموحهـا المحرك لرغباتها وشـهوتها للسـلطة والملك، لا تراعـي صلة الـدم ولا ذِمَّـة أخيهـا في الحفاظ عـلى ملكها، ولكسـب تأييد أوسـع بـدأت «كليوباتـرا» حكمهـا المنفرد بالتقـرب والتودد للمصريـين وكهانهم من خـلال الاهتمام بالمعابـد المصرية، فوضعت مشـاريع لعـمارة المعابد العظيمة وبخاصـة في صعيـد مصر.

رويـدًا رويـدًا ظهـر الـصراع بـين الشـقيقين إلى العلـن، وبخاصـة بسـبب حـدوث مجاعـة في عـام ٥٠ ق.م، ويبـدو أن خطـر المجاعـة والاضطرابـات الناجمـة عـن ذلـك ظهـر في الإسـكندرية، وذكـر لأول مـرة اسـم الملـك «بطليمـوس الثالـث عشر» في الوثائـق قبل شريكته «كليوباترا السـابعة» في

الحكـم، بذلـك نجـح الأوصيـاء عليه في إنهـاء الحكـم المنفرد لـ«كليوباتـرا». وبـدأ الحكم المشـترك منذ يونيه عـام ٤٩ ق.م.

في أواخـر صيف ٤٩ ق.م، تمكن مستشـارو «بطليموس الثالـث عشر» مـن طـرد «كليوباترا السـابعة» مـن الحكم، وخرجـت «كليوباتـرا» هاربـة من الإسـكندرية إلى طيبة في صعيـد مصر؛ حيـث كانـت شـعبيتها التي اسـتمرت أيضًا فيـما بعـد، ثـم تنقلـت حتـى اسـتقرت في «الفرمـا» شرق بورسـعيد الحاليـة، وهنـاك عملـت «كليوباتـرا» جاهـدة لاسـتعادة العـرش، وكان عـلى «بطليمـوس الثالث عشر» أن يدافـع عـن عرشـه، فسـار بجيشـه بالقُرب مـن الحدود المصريـة عنـد «الفرمـا»، مسـتعدًا للمواجهـة ضـد قـوات شـقيقته «كليوباتـرا»، حتـى وصـل بالقـرب مـن «الفرما» وأقـام معسـكره في صيـف عـام ٤٨ ق.م.

وفي تلك الأثنـاء وصـل حـاكم رومـا «يولـيوس قيصر» إلى الإسـكندرية في ٢٧ مـن يـوليو عـام ٤٨ ق.م، ودخـل القصر الملكي وأقام فيـه، وتصـرف باسـتبداد استرعى استياء السكندريين، ثم نصـب نفـسه حـكمًا في الخـلاف بين الملكين الشقيقين، وأراد أن ينظر في الخلاف على العرش المصري وفقًا

لإرادة «بطليموس الثاني عشر»، وحسب وصيته بمشاركة «كليوباترا السابعة» و«بطليموس الثالث عشر» في الحكم تحت حماية الشعب الروماني، وبتعالي الدِّكتاتور الروماني طالب قيصر بحضور الشقيقين إلى الإسكندرية ليحكم بينهما، وكان على الملكين الشقيقين أن يقبلا ما يحكم به قيصر.

أخذت كليوباترا في التفكير في هذه الفرصة لاستعادة ملكها، وقد رأت أنها يمكن أن تكسب أخيرًا الأمور في صالحها من خلال تدخل الدِّكتاتور الروماني، وحاول أخوها منعها من دخول الإسكندرية بشتى الطرق، لكن «كليوباترا»، ووفقًا لما ذكره «بلوتارخ» قد أبحرت في قارب صغير حتى وصلت بالقُرب من القصر الملكي بالإسكندرية، وعند حلول الليل ومع رفيق طريقها الوحيد الموثوق فيه، وهو صقلي اسمه «أبولودوروس»، اختبأت في سجادة وحملها إلى القصر كهدية لـ «يوليوس قيصر»، وقد أعجب قيصر بهذه الطريقة وبالفكرة والمخاطرة التي نفذتها «كليوباترا»، وبكليوباترا نفسها عند قيامها من السجادة، وهنا يمكننا تصور الصورة التي كانت عليها «كليوباترا» وكيف أعدت نفسها لهذا اللقاء، وهي على يقين بما يمكن أن يكون تأثير اللقاء

الأول على أقوى رجال عصره، فكانت في أجمل هيئاتها، وخرجت من السجادة وكأنها «أفروديت» ربة الحب والجمال تخرج من صدفة البحر، فوقعت في قلب قيصر، وكسبت «كليوباترا» المبادرة واللقاء الأول لصالحها، وبالفعل مال «قيصر» للملكة الشابة، وكان عليه أن يدافع لصالحها في صراع العرش البطلمي.

حصلت «كليوباترا» على دعم «قيصر» في مطالبتها بإعادتها على عرش مصر، مع محاولته التوفيق بين الملكين كشركاء في الحكم تنفيذًا لوصية والدهما، وقد وفق لحد ما في هذا، إلا أنه أراد توطيد العلاقة مع «كليوباترا» صاحبة الحظوة والكلمة، وربما أراد أن يستفيد منها بالمال كما ستستفيد هي بالسلطة، أي بدأت العلاقة مصلحة بين الطرفين، وقد أراد كل واحد من كلا الطرفين أن يفاد من الآخر بقدر حاجته، بالإضافة إلى الميل العاطفي الذي وقع بينهما كرجل وامرأة، كان هذا بطبيعة الحال لا يوافق «بطليموس الثالث عشر» وطموحه، وعلم أن الأمور تسير في الطريق المعاكس وسرعان ما تنفرد «كليوباترا» بالعرش، وبخاصة أن «كليوباترا» قد احتفظت بكامل القوة في يدها بدعم

«قيصر»، فهرب «بطليموس الثالث عشر» غاضبًا، ومعه مستشاروه وتابعوه، واندلعت الحرب السكندرية التي انتهت بنصر قيصر وغرق «بطليموس الثالث عشر» أثناء هربه في نهر النيل، وسقط العديد من جنوده، واستسلمت الإسكندرية.

وعلى الرغم من أن «كليوباترا» لم تكن طرفًا مباشرًا في المعركة بين أخيها و«قيصر»؛ فإنها خرجت بالمكسب الأكبر مع انتهاء الحرب بوفاة شقيقها وأعدائها الأقوياء الآخرين، وبعلاقتها الجديدة مع «قيصر»، فقد توطد موقفها بقوة، وأصبحت «كليوباترا» فرعونة مصر بلا منازع. عزز «قيصر» علاقة الصداقة بينه وبين «كليوباترا» لتأمين موارد مصر الغنية له شخصيًّا، وخطط لتكون مصر دولة تابعة لروما دون أن تكون مقاطعة رومانية بشكل رسمي، ولن يتحقق هذا بيسر إلا من خلال علاقته «بكليوباترا»، لذلك كان على قيصر أن يدعمها بقوته ورعايته.

ولكي يتحسن الوضع في الإسكندرية أعلنت «كليوباترا السابعة» زواجها من أخيها الصغير «بطليموس الرابع عشر»

البالغ من العمر اثنتي عشرة سنة في عام ٤٧ ق.م، وكان يصغرها بعشر سنين، وكان زواجًا شكليًّا يحقق أغراضًا عدة، أولها: استمرار تنفيذ وصية أبيها في مشاركة أخيها في الحكم، الثاني: احترام التقاليد المصرية والبطلمية بوجود ملك رجل على العرش، وكذلك ضمان التفوق السياسي لـ «كليوباترا»، وبذلك لعبت الدور الرئيس وكانت صاحبة الحكم في القصر الملكي طوال فترة شراكتهما.

رأت كليوباترا أن الأمور بدأت تسير في ركابها، وبدأت أخطر سياسة يمكن أن تمارسها امرأة وهي سياسة غزو قلب «قيصر»، فقررت أن تذهب معه في رحلة نيلية لزيارة الأقصر، تاركًا جيشه خلفه حتى تخلو الرحلة من الشكل العسكري، وعادت «كليوباترا» من هذه الرحلة وقد حملت طفلًا من «قيصر».

في ربيع عام ٤٧ ق.م ، كان على قيصر أن يغادر مصر، لاستكمال متطلبات الحكم والسياسة في روما، وكان عليه أيضًا خوض حروب عدة من أجل روما، نجم عنها انتصارات عدة متتالية، فقام بإهداء جزيرة «قبرص» التي كانت مقاطعة رومانية آنذاك، لـ«كليوباترا» في عام

٤٦ ق.م؛ لتحقق بذلك أول مكسب سياسي توسعي، أو استردادي، إذ إن «قبرص» كانت من الممتلكات المصرية حتى عام ٥٨ ق.م.

بعد رحيل قيصر من مصر ولدت «كليوباترا» ابنا وسمته «قيصر» على اسم أبيه، وأغلب الظن أنها أرادت بذلك المطالبة السياسية المرتبطة بهذا الاسم بشكل غير مباشر، وأطلق الإسكندريون على الطفل الوليد قيصرون أي «قيصر الصغير»، كنوع من السخرية، إذ إنه لم يكن ابنًا من زواج شرعي.

ذهبت «كليوباترا» إلى روما في عام ٤٦ ق.م، بدعوة من «قيصر» وكان يرافقها في الرحلة أخوها وزوجها، «بطليموس الرابع عشر»، وابنها قيصرون، ودخلت روما في موكب مهيب فخم ترك أثرًا كبيرًا في نفوس الشعب الروماني، فهي تعرف ما لمظاهر العظمة من التأثير في النفوس بالمهابة والإعزاز والاحترام والرهبة، وأقامت «كليوباترا» ورفقاؤها في حدائق «قيصر» وراء نهر التيبر.

كان تأثير «كليوباترا» في «قيصر» واضحًا في تبنيه مشاريع عدة من أفكارها، فقد تبنى عام ٤٦ ق.م، التقويم السكندري

المصري لإصلاح التقويم الروماني، كما خطط أيضًا لبناء مجموعة من المكتبات العامة في روما لتضم عددًا كبيرًا من الأدب اليوناني والروماني، وبتشجيع من «كليوباترا» سعى «قيصر» دائمًا إلى الحكم المطلق، وكان يتصرف تحت تأثيرها وكأنه حاكم هيلينستي، وبدأ يتضح لأعضاء مجلس الشيوخ؛ أن وضع «كليوباترا السابعة» كحاكمة مطلقة كان لا بد قادمًا، وما هي إلا مسألة وقت.

كان لظهور «كليوباترا» في «روما» بمظاهر العظمة والأبهة وقُربها من «قيصر» الذي تجاهل الرأي العام أثره؛ حيث اعتبره المناهضون له تهديدًا «لروما» ووجودها، وكانوا كذلك يخشون أن يؤسس قيصر مملكة على النموذج الهيلينستي بعناصر رومانية، وأن يبدأ ذلك بالزواج من الملكة البطلمية ليؤسس أسرة حاكمة جديدة، لقد أثار كل هذا حقد وكراهية الرومان، وشعورهم بالخوف على «روما» مما أسفر عن مؤامرة لقتل «يوليوس قيصر»، فقام كل شخص من المتآمرين بتسديد طعنة لـ«قيصر» حتى يموت على أيديهم جميعًا ليتفرق الدم بينهم، وكان آخرهم «بروتوس»، وكان صديقًا حميمًا لـ«قيصر»، فقال له العبارة الشهيرة التي

نعرفها جميعًا: «حتى أنت يا «بروتوس»؟» ، وكان رد «بروتوس»: «آسف ولكني أحب روما كثيرًا»، فيرد «قيصر»: «إذن ليمت قيصر»، ويعترف «بروتوس» أمام الجماهير الحاشدة حول جسد «قيصر»: «لقد قتلت قيصر ليس لقلة حبي له، بل لأني أحب روما أكثر».

عادت «كليوباترا» بخيبة أمل لفشل تجربة توحيد الغرب مع الشرق على يديها مع «قيصر»، إلا أن شخصية «كليوباترا» لا تقبل الاستسلام، بل بإعادة المحاولة وتحيّن الفرص المناسبة والتمهيد إليها؛ لذا وبعد فترة وجيزة من العودة إلى مصر دبرت لقتل أخيها «بطليموس الرابع عشر»، وأجلست ابنها «قيصرون» إلى جانبها على عرش مصر، وبذلك تضع لبنة جديدة في ملكها، فربما عن طريق «قيصرون» يكون لها حق في إرث أبيه «قيصر»، وفي عام ٣٧ ق.م عندما بلغ «قيصرون» سن العاشرة توج فرعونًا، وحصل على الألقاب الملكية الخمسة كفرعون شرعي حتى نهاية حكمه.

انقسم الحكم في روما بعد وفاة «يوليوس قيصر» بين «أوكتافيان» في حكم روما والجانب الغربي من

الإمبراطورية، و«مارك أنطونيو» في حكم الجانب الشرقي من الإمبراطورية، الذي خرج إلى آسيا الصغرى وأقام في «طرسوس» على الساحل الجنوبي، ثم استدعى «كليوباترا» لكي تأتي حيث يقيم، وهناك التقت به في خريف عام ٤١ ق.م، وقد ذكر بعض الكُتَّاب الرومان، أنه كان من الواضح أن «كليوباترا» قد تعمدت استخدام مفاتنها للفوز بـ«مارك أنطونيو»، وكان السبب في استدعائها على الأرجح مجرد ذريعة، رغب بها «أنطونيو» تأمين المساعدة المصرية لحملته المخطط لها على بلاد فارس؛ لأن «كليوباترا» كانت الأهم من بين الحكام في الشرق.

شعرت «كليوباترا» أولًا بالخوف من لقاء أنطونيو لما كان لها مع «قيصر»، لكنها جمعت معلوماتها لتتعرف على شخصية «أنطونيو»، وعرفت أنه من عُشَّاق المتعة، ومحب للولائم، فقررت بثقة أن تذهب إليه ومعها سلاحاها ذكاؤها وأنوثتها، وقد صور «بلوتارخ» هذا اللقاء في صورة بليغة؛ حيث قال: «وصلت الملكة واقفة على متن سفينتها المذهبة ذات الأشرعة الأرجوانية، كفتاة جميلة بملابس حورية من البحر».

في الأيـام التاليـة أقامـت «كليوباتـرا» لأنطونيـو المآدب الفاخـرة، ووفقًـا للكُتـاب القدمـاء كانـت هـي الشـخص الـذي غـزا «أنطونيـو» وليـس العكـس، وبالإضافـة إلى العنـصر الشـخصي، كانـت هنـاك أيضًـا أسـباب سياسـية للتعـاون لـكلا الجانبـين، وتمكنـت «كليوباتـرا» للمـرة الثانيـة مـن السـيطرة عـلى الرومـاني الأقـوى بـأن جعلتـه عاشـقًا لهـا، واسـتغلت نفـوذه لأغراضهـا السياسـية وتوطيـد ملكهـا، وعـادت «كليوباترا» إلى «مـصر» على أن يلحـق بهـا «أنطونيو»، فاسـتقبلته في الإسـكندرية، وأمضى معهـا فصـل الشـتاء ٤١/ ٤٠ ق.م.

راعـت «كليوباترا» أن تحافظ دائمًا عـلى معاملة «أنطونيو» وهـي في مـزاج جيـد، وكما ذكـر «بلوتـارخ»، أن العاشـقين كانـا دائمـي إقامة المـآدب والولائم والاحتفـالات التي كان يحبهـا «أنطونيـو»، أي أن «كليوباتـرا» عرفـت كيـف تغـزو قلـب ولـب «أنطونيـو»، وأنجبـت «كليوباتـرا» «لأنطونيو» التـوءم «ألكسـندر هيليـوس» و«كليوباتـرا سـيليني»، وفي عـام ٣٦ ق.م أنجبـت لـه طفـلًا ثالثًـا، هـو «بطليمـوس فيلادلفـوس».

وفي عـام ٣٤ ق.م. انتـصر «أنطونيو» عـلى الملك الأرمني «أرطافـازاد» الـذي سـار هـو وعائلته في الأغـال في موكب انتصـار «أنطونيـو» الـذي خـرج في صـورة مهيبـة في الإسـكندرية، وفي هـذا إعلان بأن «الإسـكندرية» سـتكون مقـر حكـم «أنطونيـو». وبهـذه المناسـبة أعلـن «أنطونيـو» زواجـه من «كليوباتـرا»، وأعلن عن «الهبات السـكندرية»، هبـات «أنطونيـو» لـ«كليوباتـرا» وأبنائهـا بحكـم الـشرق، وكانـت اعترافًا بـأن «كليوباتـرا» و«قيـصرون» كانا الحاكم المبـاشر لـ«مصر» و«قـبرص»، وأعلن «أنطونيـو» مؤكدًا أن «قيـصرون» هو ابن «قيصر» من صلبه، في إشـارة إلى أحقيته بميراث «قيـصر» وليضعف من قـوة «أوكتافيـان» المتنامية، ثـم تـوج «ألكسـندر هيليـوس» كملـك عـلى «أرمينيـا»، و«ميديـا» و«بارثيـا»، أمـا الابـن الصغـير «بطليمـوس فيلادلفـوس» فتـوج ملـكًا عـلى «فينيقيا» و«سـوريا» غرب الفـرات «وكيليكيـة»، وحصلـت «كليوباترا سـيليني» على «برقـة» و«ليبيـا». وهكذا كانت «كليوباتـرا» في ذروة قوتها، وحصلـت عـلى لقـب ملكـة الملوك.

رأى «أوكتافيـان» أن تبديـد الأقاليـم الرومانيـة وكل الشرق الأوسـط على أطفـال «كليوباترا» القـصر، ودخول

«أنطونيـو» المنتـصر في موكبـه في «الإسـكندرية»، الـذي كان يجـب أن يكـون في «روما» حسـب التقليـد المتبع، كان عمـلًا لا يجـب السـكوت عنـه ويعـد عـداءً ضـد «رومـا» ومصالحهـا، وترتـب عـلى ذلـك تأجـج الـصراع بـين «أنطونيـو» و«أوكتافيـان» الـذي أدى إلى معركـة «أكتيـوم البحريـة» في سـبتمبر ٣١ ق.م.

أصيب أسـطول «أنطونيو» بخسـائر فادحة في «أكتيوم»، وعندمـا أيقنـت «كليوباتـرا» بالهزيمـة، انسـحبت مـن المعركـة ثـم أخـذت طريقهـا إلى «الإسـكندرية»، ولاحـظ «أنطونيو» انسـحابها فتبعهـا ولحق بها، وتـرك خلفه المصير المـؤلم للجزء الأكبر من أسـطوله، كان رأي بعـض الكُتَّاب القدمـاء أن «كليوباتـرا» فرت غدرًا وهـو رأي ترفضه كثير مـن البحـوث الحديثة، ويـرون أن انسـحابها كان جزءًا من خطتهـا في الحرب.

عـاد «أنطونيـو» محبطًـا إلى الإسـكندرية ليتلقى - حسـب أوامـر «كليوباتـرا» - أخبـارًا كاذبـة عـن انتحارهـا، فنـزع سـيفه وطعـن نفسـه، ثـم علم وهـو ينـزف أنها لا تـزال على

قيـد الحيـاة وتنتظـره في ضريحهـا، فأمـر تابعيـه بـأن يأخذوه لهـا، وتـوفي بين ذراعي حبيبتـه، ويعتقد كثير مـن الباحثين أن «كليوباتـرا» قـادت حبيبها عمدًا وبـذكاء إلى الموت؛ لتحاول بعدهـا مرة أخـرى للتوصـل إلى اتفاق مـع «أوكتافيان»، ولو بفديـة نفسـها بكنوزهـا حتـى لا تسـير ذليلـة في موكب نصر «أوكتافيـان» الـذي صمـم عـلى حملهـا معه لموكـب نصره في «رومـا» ليفي بوعـده للشـعب الروماني.

تمكـن «أوكتافيـان» من القبـض على الملكـة، ووضعها تحـت الحراسـة المشـددة دون التعـرض لهـا، واسـتمرت كذلـك لمـدة اثني عـشر يومًا حتـى تمكنت مـن الانتحار، كانـت «كليوباتـرا» امـرأة مكسـورة، وأصيبـت بحالـة حـداد وحـزن شـديدين عـلى «أنطونيـو»، وحاولـت أن تنهـي حياتها بـالإضراب عن الطعـام حتى تجنب نفسـها مـن العرض الخاص بهـا في موكـب انتصـار «أوكتافيان» وعـلى مشـهد مـن جمهـور الشـعب الرومـاني، ولكـن «أوكتافيـان» أدرك نواياهـا وأوقفهـا عـن إتمـام مخططهـا وهددهـا بأطفالها.

بنـاء عـلى طلـب مـن «كليوباتـرا» جـاء «أوكتافيـان» للحديث معهـا، وكان لقاءهما الوحيد، ووفقًا لـ«بلوتارخ»، كانـت «كليوباتـرا» في حالـة إعيـاء وعصبية، واسـتقبلت الإمبراطـور الجديـد بشـعر غـير ممشـط وفي ثوب نسـائي خفيـف، لكـن محاولتها لم تنجـح، ثم انتحبت وسـقطت، وكانـت ترغب بهـذا اللقاء اسـتعطاف «أوكتافيـان»، وفي محاولـة أخـيرة ربـما تسـتطيع أن تكسـبه فيهـا إلى جانبهـا، وبعـد الحديـث مـع «أوكتافيـان» أيقنـت «كليوباتـرا» تمامًـا أنهـا لـن تنجـح هـذه المـرة وأنهـا -حتـمًا- ستسـاق للمشـاركة في موكـب نـصره، وأنهـا لن تسـتطيع أن تحفظ ملـك أبنائها.

خشـيت «كليوباتـرا» عـلى نفسـها هـذا المصـير المـذل؛ لـذا قامـت بمحاولـة أخـيرة خداعيـة، وطلبـت مـن «أوكتافيـان» السـماح لها بزيـارة قبر «أنطونيـو» مرة أخيرة، وخُـدع «أوكتافيـان» هـذه المـرة وخفـف عنهـا الحراسـة، وفي يـوم ١٢ مـن أغسـطس عـام ٣٠ ق.م أخـذت حمامًا، ثـم أكلـت وجبـة لذيـذة، وفي الوقـت نفسـه أحـضر إليها مـزارع سـلة تـين بنـاء عـلى رغبتهـا، وأظهـر للحُـرَّاس

التين، ولم يلحظوا أن تحت التين يختبئ ثعبان الكوبرا السام، لذا سمح له بإدخال السلة للملكة، وعلى الأرجح أن طبيبها «أوليمبوس» ، وبناءً على رغبتها ، كان قد أعدها للدغة الثعبان، وبعد الطعام أرسلت «كليوباترا» رسالة عاجلة إلى «أوكتافيان» برغبتها أن تدفن بجانب أنطونيو.

عندما قرأ «أوكتافيان» رسالتها عرف مقصدها وأنها أقدمت على الانتحار وأرسل إليها الرسل مسرعين، ولكن دون جدوى فقد ماتت «كليوباترا»، ووجدت ملقية في زيها الملكي وعلى سريرها الذهبي، في حين أن خادمتيها كانتا ملقيتين ميتتين إلى جوارها.

أقبلت «كليوباترا» على الموت إقبالًا وبراحة تامة، ممسكة بيدها ثعبانًا مخيفًا، وتركته يبث سمه القاتل في جسدها.

هكذا متحدية لرغبة «أوكتافيان» وحب الحياة، قررت الموت بجرأة لا تحسد فيها على قسوة مشاعرها تجاه نفسها، ولتضيف إلى سحرها بهذا الموت سحرًا آخر

مميـزًا لنهايـة ملكـة مـلأت الدنيـا بسـيرتها وقوتهـا الخاصة التـي لم تحظ بهـا امرأة غيرهـا، وبذلـك ماتت ميتـة منحتها الخلـود طبقًـا للعقيدة المصريـة، وفي نظر الشـعب المصري.

سـمح «أوكتافيـان» لــ «كليوباتـرا» المتوفـاة عـن عمـر ٣٩ عامًـا وحسـب رغبتهـا، أن تدفن بجـوار «أنطونيو» في ضريحهـا الـذي قـد تـم اكتمالـه، إلا أنـه لم يسـتطع أن يفـي بوعـده للشـعب الرومـاني بـأن يقـود «كليوباتـرا» ذليلة في موكـب نصره؛ لـذا أمر فنانيه برسـم صـورة لـ«كليوباترا»، تمثلهـا مـع اثنـين مـن الثعابين، وسـار بها في موكـب النصر في «رومـا» عـام ٢٩ ق.م.

ماتـت «كليوباتـرا السـابعة»، ماتـت الأسـطورة، ماتـت أشـهر نسـاء العـالم، ولا شـك؛ فـإن «كليوباترا» فـازت وخسـرت بسـبب ذكائها وسـحر أنوثتهـا، وبهما وحـدت بين الـشرق والغـرب وفرقت بينهما، وبسـبب هـذا تـم الإعجـاب بها واللـوم عليهـا، وانتهـى العصر البطلمـي الـذي طـال ٣٠٠ سـنة، وأصبحـت مـصر ولايـة رومانية.

شكل (١٩): الملك «بطليموس الثاني» يقدم القربان لإيزيس وأرسنوي الثانية في معبد إيزيس بفيلة

شكل (٢٠): عملة «برنيكي الثانية» كملكة حاكمة

شكل (٢١): تمثال «كليوباترا الأولى» تمسك بيدها اليسرى قرن الخير

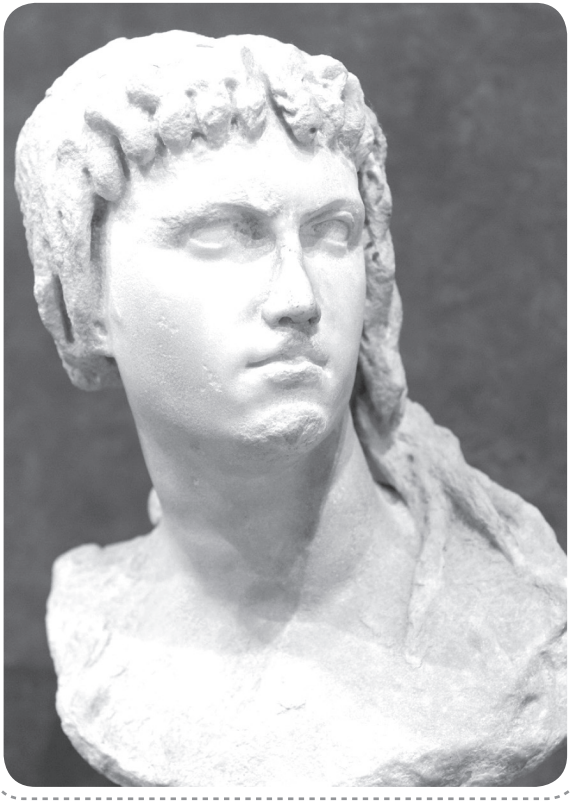

شكل (٢٢): تمثال «كليوباترا الثانية» من المرمر

شـكل (٢٣): منظـر لتقدمـة القرابين من الملـوك الثلاثة «بطليمـوس الثامن» يليـه «كليوباتـرا الثانية» ثـم «كليوباتـرا الثالثـة»، أثناء فترة حكمهـم الثلاثي المشـترك، معبد كـوم أمبو

شكل (٢٤): رأس من المرمر للملكة «كليوباترا الثالثة»

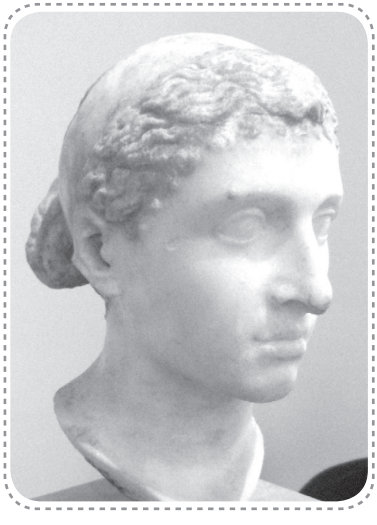

شكل (٢٥): رأس الملكة «كليوباترا السابعة» من المرمر

شكل (٢٦): عملة برنزية «لكليوباترا السابعة»، تظهر وجهها على جانب، والنسر رمز الملكية على الجانب الآخر

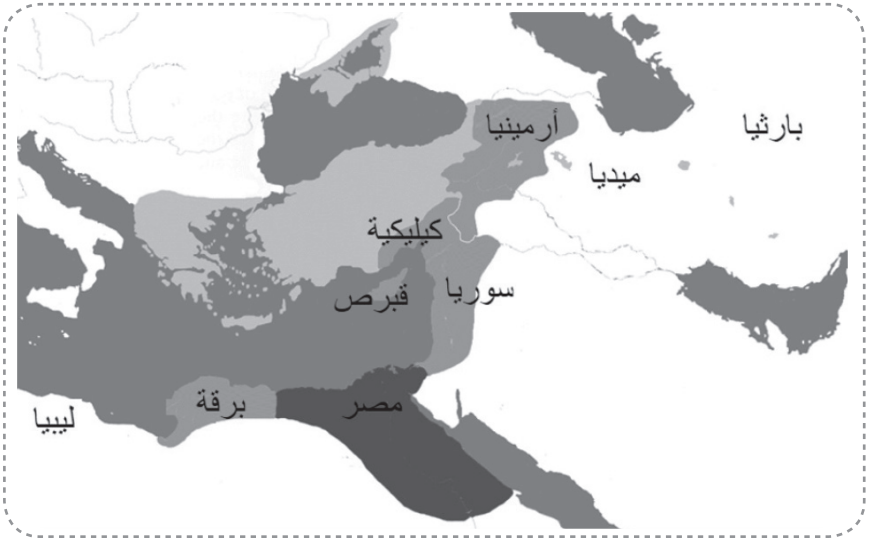

شكل (٢٧): خريطة تظهر ممتلكات «كليوباترا» وأبنائها، والمعروفة بالهبات السكندرية عام ٣٤ ق.م.

السلطانة «شجر الدر»

«شجر الدر»، وذكرت أيضًا «شجر الدر»، وسوف أذكرها فيما يلي باسم «شجر الدر»الذي أطمئن إليه نظرًا لذكره عند المؤرخ المعاصر لها «جمال الدين محمد بن سالم بن واصل» (١٢٠٨ - ١٢٩٨م)، في كتابه «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب»، وهو الاسم الذي أطلق عليها كجارية، ويعني الجميلة اللامعة مثل الأشجار التي تحمل الدر واللآلئ نظرًا لجمالها، فقد وصفت «شجر الدر» بأنها كانت بيضاء البشرة، وشعرها أسود غزير متدلٍّ، وكانت تقرأ وتكتب وتغني، وكانت شديدة الذكاء، وذات شخصية حازمة، وصاحبة منطق صائب، وصوت عذب، وكانت ذات ورع ودين.

كانت «شجر الدر» من أشهر نساء المسلمين توفيت عام ١٢٥٧م، وهي شخصية فذَّة متعددة الجوانب، لا يسع المرء إلا أن يعجب بها ويقدرها، ويحمد لها مواقف عدة حافظت بها على مصر وسلطانها، امرأة ذات طموح وذكاء على رأس دولة مسلمة، انتقل بها الحال من جارية إلى زوجة السلطان إلى سلطانة مصر، وحكم

شـجر الـدر يسـتحق التأمـل عـلى خـلاف حكـم الملكات السـابقات الـلاتي حكمـن مـصر، وإن كان يجمـع بينهـن رفـض الأعـراف والتقاليـد لحكـم امرأة.

السـلطانة «شـجر الـدر»، المـرأة الوحيـدة التـي حكمـت مصر طـوال عصورها الإسـلامية، وهي أول مـن ملك مصر مـن ملـوك المماليـك، وقـد اختلفـت الآراء في أصلهـا، فقيـل إنهـا خوارزميـة الأصـل، وقيـل إنهـا أرمينيـة، ويرجـح أنهـا تركيـة الأصـل حسـب مـا ذكـره المقريـزي، وقد ظهـرت في المصـادر لأول مـرة كمحظية للسـلطان «الصالـح نجم الدين أيـوب»، لكـن لا يعـرف بالضبـط متـى ضمـت في حوزتـه، لكنهـا كانـت قـد عرفـت مـن حريمـه في عهـد والـده الملك الكامـل. ولا يعـرف شيء عـن حياتهـا قبـل هـذا الوقـت.

كان «الصالح نجم الدين» يحب «شجر الدر»، وكانت لا تفارقه من شدة محبته لها، وكانت بارعة الجمال ذات رأي ودهاء وعقل، عذبة الحديث رقيقة الجانب، فكان «الصالح نجم الدين» يصاحبها، ويعتمد عليها، ويسكن إليها عند الضيق، وكانت ملاذه الذي يلوذ به، ويأنس بنصحها ورأيها، وكانت دائمًا السامر والمعين وموضع السر ومأمنه.

عين «الصالح نجم الدين» ولي عهد أبيه، ثم خلعه لوشاية وجعله نائبًا له في حكم المقاطعات الشرقية لدولته، وكان لبُعد الصالح عن مصر، فرصة لأخيه غير الشقيق الملك العادل الثاني أن يقصيه ويجلس على عرش السلطنة، وتدور الكثير من الأحداث التي نوجزها فيما يلي حتى لا نخرج عن سيرة الملكة «شجر الدر» التي نحن بصددها.

قرر «الصالح» أن يسترد إرث أبيه وجهز لحملة ضد أخيه «العادل»، لكنه تعرض للخيانة من قبل بعض قواد جيشه، كما انقلب عليه ابن عمه «الناصر داود» صاحب «الكرك» بالأردن إلى جانب بعض المماليك، وألقوا القبض عليه وتوجهوا به إلى الكرك في عام ٦٣٦هـ/ ١٢٣٩م، ولم يكن مع الصالح سوى الأمير «ركن الدين بيبرس»، وجاريته الحامل «شجر الدر»، وكان حبسه داخل القصر، وكان يقوم على خدمته بعض رجال الحاشية، ولم يُهنْ كسجين، بل كان يعامل كأمير إلا أنه لا يستطيع مغادرة القصر.

كان لحبس «شجر الدر» مع «الصالح» أهمية كبيرة في حياتها السياسية فيما بعد، بل يمكننا القول: إن بداية

التغيير في مستقبلها كان في الأسر ومرافقة زوجها، وبه مكنت لنفسها عند سيدها طوال فترة حياته وحتى بعد مماته، فكانت موالاتها لسيدها ومؤازرته في وقت الحبس سببًا إضافيًّا لحبها ومكانتها في قلبه، وساعد على توطيد مركزها لدى الصالح، أنها أنجبت له أثناء الأسر ابنهما «خليل»، وعلى الرغم من أنه عاش ثلاثة أشهر فقط، ولكنه كان سببًا في تحرر شجر الدر من عبوديتها، وأصبحت «أم ولد»، فحررها الملك الصالح، ثم أعلن زواجه منها عند دخوله القاهرة وجلوسه على عرش السلطنة. ومنذ ذلك الحين أصبح يشار إليها بكنية «أم خليل».

بعد إطلاق سراح «الصالح نجم الدين أيوب» توجه إلى مصر؛ حيث كان المماليك هناك قد خلعوا أخاه الملك «العادل» وسجنوه، وتمكن «الصالح نجم الدين» من السيطرة على مصر، وأعلن نفسه سلطانًا عليها، ثم حصل عام ١٢٤٠م على تنصيب من قبل الخليفة العباسي المستنصر بالله في بغداد.

في هذه الأثناء تمكنت «شجر الدر» من دعم موقفها في عهد «الصالح نجم الدين»، فكانت نائبة عن السلطان

في غيابه، وقد تم لها هذا مرارًا أثناء سفره للحرب مع الصليبيين، أو ضد أمراء الأيوبيين المتمردين، أو لمتابعة شئون الدولة في الشام، وهكذا عقدت مقاليد السلطة في يديها، وكانت بذلك مطلعة على أسلوب حكم «الصالح نجم الدين» وعلى طريقته وكيفية تعامله مع المماليك والأمراء، وبالتالي كانت لها السيطرة على جزء كبير من المؤسسة العسكرية.

نظرًا لدورها المهم في السلطنة الذي أدركه زوجها الملك الصالح، كان عليه أن يدعمه لتلعب هذا الدور دون مشاكل، فبدلًا من نقل سلطته بالإنابة رسميًّا إلى شجر الدر في حالة غيابه، وحتى لا يجعل امرأة نائبه للسلطنة قرر تركها رسميًّا في عهدة ابنه المتوفى خليل - طبعًا بصفة صورية - وبذلك تتمكن «شجر الدر» من ممارسة السلطة من خلاله، وأصبحت نائبًا له وحكمت باسم «أم خليل».

وطد هذا الوضع مركز «شجر الدر» لمراحل لاحقة في حياتها السياسية، وهو ما مكنها من السيطرة على شئون الحكم عندما مرض «الصالح» سنة ١٢٤٩م، بمرض

خطير، اتخذت شجر الدر دورها كنائب السلطان في ممارسة واجبات الحكم بالتنسيق التام مع زوجها «الملك الصالح». وفي تلك الأثناء يتلقى الصالح الأخبار بحملة صليبية (السابعة) للملك الفرنسي «لويس التاسع» على «مصر». فما كان على هذا الملك المجاهد الذي يعرف واجباته تجاه دولته وشعبه، إلا أن يخرج للقاء الحملة على الرغم من مرضه الخطير، اتخذ «الصالح» طريقه إلى دمياط في أبريل ١٢٤٩م، وفي يونيه من العام نفسه سقطت «دمياط» في أيدي الصليبيين وتحصنوا بها، فأقام الملك «الصالح» معسكره في «المنصورة»، وأعلن النفير العام في «مصر» وتسابق الناس إلى «المنصورة» طالبين الجهاد ضد الغزاة.

طال حصار الصليبيين في «دمياط»، وفي تلك الأثناء توفي الملك «الصالح» يوم الإثنين ليلة النصف من شعبان ٦٤٧هـ/ ٢٢ نوفمبر ١٢٤٩م، عن أربع وأربعين سنة، أخفت «شجر الدر» خبر وفاته خوفًا من وصول الخبر إلى الصليبيين، وقامت شجر الدر بنقل جثمانه سرًّا من المنصورة، إلى قلعة الروضة حيث دفن فيها،

ولم يعلم أحد من الناس بوفاته. وحرصًا على بقاء خبر الوفاة مكتومًا، أعلنت «شجر الدر» أن السلطان مريض لا يزوره أحد سوى أطبائه، واستخدمت لهذا الغرض وغيره من شئون الحكم أوراق مراسيم بيضاء، قيل: إن السلطان وضع عليها علامته قبل وفاته.

وفي خضم هذه الأزمة العسكرية أرسلت «شجر الدر» سرًّا لاستدعاء «توران شاه» آخر أبناء «الصالح أيوب» إلى «مصر» ليأخذ مكان والده، ثم جمعت الأمراء والقواد، وقالت لهم: «إن السلطان قد رسم بأن تحلفوا له ولابنه الملك المعظم «غياث الدين توران شاه» صاحب حصن كيفا أن يكون سلطانًا بعده، وللأمير «فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ» بالتقدمة على العساكر والقيام بالأتابكية وتدبير المملكة، فقالوا كلهم: سمعًا وطاعة، ظنًّا منهم أن السلطان حي، وحلفوا بأسرهم وحلف سائر الأجناد والمماليك السلطانية».

كما أرسلت «شجر الدر» مرسومًا إلى الأمير «حسام الدين» نائب السلطنة في القاهرة وأخبرته بما تم من حلف يمين الولاء لـ«توران شاه»، فكان على الأمير

«حسام الدين» أن يحذو حذو الأمراء المماليك بتحليف أكابر رجال الدولة بالقاهرة، وأصبح يخطب للمعظم توران شاه بعد أبيه على المنابر، وفي خطوة أخرى موازية أرسلت شجر الدر الأمير «فارس الدين أقطاي» بخطاب لإحضار الملك «توران شاه» من حصن كيفا، ووصل إلى «القاهرة» يوم ١٩ فبراير ١٢٥٠م وتولى منصب السلطان الجديد، ثم توجه إلى «المنصورة» لقيادة الجيش ضد الصليبيين.

في الفترة ما بين وفاة «الصالح» ووصول ابنه، وهي مدة ثلاثة أشهر، أدارت «شجر الدر» شئون الحكم والمعركة الدائرة مع الصليبيين، وكان يعاونها «فخر الدين يوسف»، الذي مات أثناء هجوم متجدد من الصليبيين في ٩ فبراير ١٢٥٠م وقبل وصول «توران شاه»، فجمعت «شجر الدر» لنفسها منصب القائد الأعلى الرسمي للجيش، وكانت قد احتفظت بزمام الأمور كلها في يدها، وكانت لها السيطرة الكاملة على الجيش، وقامت بتعيين الأمير «عز الدين أيبك التركماني» للمشاركة في تدبير أمور الحكم، وأسندت قيادة الجيش للأمير «ركن الدين بيبرس

البندقـداري»، وبذلـك أنقـذت البـلاد من كارثـة كانت على وشـك أن تنتهـي بتحويـل مـصر إلى ولايـة صليبية.

كان نبأ وفاة السـلطان «الصالح» قد تـسرب إلى الصليبيين، وفي الوقت نفسـه وصلت إلى «دمياط» إمـدادات مع «الفونس دو بويتـي» شـقيق الملـك «لويـس»، فتشـجع الصليبيـون وقـرروا الخروج من «دميـاط» والتوجه إلى «القاهـرة»، فعبروا النهـر عنـد بحـر أشـموم (يعـرف اليـوم بالبحـر الصغـير) ، وهجمـوا بغتـة عـلى معسـكر المسـلمين في جديلـة عـلى بُعـد ثلاثـة كيلومـترات مـن مدينـة المنصـورة؛ حيـث قتـل الأمـير «فخـر الديـن»، فهربـت العسـاكر التـي بلغتهـا الهجـوم غـير المتوقـع، وتقهقـرت القـوات إلى «المنصـورة».

عـرض الأمـير «ركن الديـن بيبرس» على «شـجر الدر» خطـة مضـادة وضعهـا ليوقـع بهـا الفرسـان الصليبيـين المندفعـين نحـو المنصـورة في مصيـدة، فوافقت شـجر الدر عـلى الخطـة، فقـام «ركن الديـن بيـبرس» بتنظيـم صفوف العسـاكر المنسـحبين مـن جديلـة داخل المنصـورة، وطلب منهـم ومـن السـكان التـزام السـكون التـام حتـى يعتقـد

الصليبيـون المهاجمـون أن المدينـة خاليـة، فوقعـوا في الفـخ الـذي نصب لهـم واندفعـوا إلى داخـل المنصـورة، واتجهوا نحـو القـصر السـلطاني ليحتلـوه. ففاجأهـم المماليـك وخرجـوا عليهـم مـن كل جانـب وناحيـة بالسـيوف والسـهام، وخـرج سـكان «المنصـورة» والمتطوعـون المجاهـدون راغبـين في النـصر أو الشـهادة، وأغلقـت الشـوارع والحـواري وحـوصر الصليبيـون مـن كل جانب ولم يتمكنـوا مـن الهـروب فكانـت مجـزرة عظيمـة وقتـل منهـم عـدد كبـير، وانتهـت المعركـة بهزيمـة الصليبيـين هزيمـة منكـرة في حـواري «المنصـورة».

هـذا كان أول ظهـور للمماليـك البحريـة داخـل مـصر كفرسـان أشـداء مجاهدين مقاتلـين يدافعون عـن «مصر». والذيـن لعبـوا إلى جوار «شـجر الـدر» دورًا فارقًـا في تلك اللحظـة مـن تاريـخ «مـصر» والمنطقـة، ويحمـد لـ«شـجر الـدر» الـدور الأهم في هـذه الفترة في الحفـاظ على «مصر» وسـلطانها، ويحمـد لهـا أيضًـا أنهـا أبـرزت رجـالًا دخلـوا تاريـخ مـصر، وأثـروا في تاريـخ العـالم في الفـترات التاليـة مثـل، «عـز الديـن أيبـك»، و«الظاهـر بيبرس»، و«سـيف الديـن قطـز»، و«قـلاوون الألفـي» ... وغيرهم.

كانـت موقعـة «المنصـورة» موقعـة فارقة، ضعفـت فيها شـجاعة الملك «لويس التاسـع»، وأخذ موقـف الصليبيين يـزداد سـوءًا بسرعة واضحـة، بعد أن قلت المـؤن وفقدوا أعـدادًا كبـيرة مـن فرسـانهم، وانتـشرت الأمـراض في معسـكرهم، وفي تلـك الأثنـاء يصـل الملك المعظـم توران شـاه إلى «المنصـورة» في فبراير ١٢٥٠م، فأُعلن رسـميًّا عن وفـاة «الصالـح»، وسـلمته «شـجر الـدر» مقاليـد الأمور، فـأدى وصولـه إلى ارتفـاع الـروح المعنويـة عنـد المصريين «وتيمـن النـاس بطلعته».

مـا أن تسـلم «تـوران شـاه» مقاليـد قيـادة الحـرب ضد الصليبيـين، حتـى بدأ التنسـيق مـع أمراء المماليـك، وكانت المعركـة القاصمـة في أبريـل ١٢٥٠م، وهزمـت الفرنجـة تمامًـا وقبـض عـلى «لويـس التاسـع» ونـزل أسـيرًا في بيت القـاضي «إبراهيـم بـن لقـمان»، كـما أُسر أخـواه «شـارل دانجـو» و«ألفونـس دو بويتـي» وعـدد كبـير مـن أمرائـه ونبلائـه، وقـد سـجن معظمهـم معـه في دار «ابـن لقمان».

بعـد النـصر انتقـل «تـوران شـاه» إلى «فارسـكور»، وبـدأ حيـاة يشـوبها اللهـو والفسـاد، وسرعان مـا تنكر

لـ«شـجر الـدر»، وبـدلًا مـن أن يحفـظ لهـا الجميـل إذ تحاملـت عـلى نفسـها في كتمان خبر وفـاة زوجهـا «الصالح نجـم الديـن»، وتحملهـا الموقـف بـكل صلابـة، وإدارتهـا للعمليـات العسـكرية حتى وصولـه وتوليه القيـادة، بعث يهددهـا ويطالبهـا بـمال أبيـه، فكانـت تجيبـه بأنهـا أنفقته في شـئون الحـرب وتدبـير أمـور الدولـة، ولم يكتـف «تـوران شـاه» بذلك، بل امتد حنقه وغيظه ليشـمل أمـراء المماليك، أصحـاب الفضل في تحقيـق النصر العظيم وإلحـاق الهزيمة بالحملـة الصليبية السـابعة، وبدأ يفكـر في التخلص منهم، فلـم ترَ «شـجر الدر» و«المماليـك الصالحيـة» أي خيار آخر سـوى اغتيـال «توران شـاه»، وكانوا أسـبق منـه في الحركة وأسرع منـه في الإعـداد، وقتلـوه بيد «ركـن الدين بيبرس» في ٢ مايـو ١٢٥٠م.

مـع اغتيـال «تـوران شـاه» تبـدأ الفـترة الرئيسـة الثانية في حيـاة «شـجر الـدر». للحفاظ عـلى هيـكل الحكم وعلى السـلطنة مـن التفـكك والإضرابـات التـي كان يمكـن أن تحـدث، وهنـا ظهـر المماليـك في خطـوة واضحـة لدعـم مراكزهـم ورسـم مسـتقبلهم الجديد وقرروا تعيين «شـجر

الـدر» سـلطانة على مـصر، أراد الله أن يعطي «شـجر الدر» شـيئًا مـن الملك فيـسر لها أسـبابه ودُفعـت إليه دفعًـا، لكن المجتمـع والعـرف والظـروف لم يمكنـوا لهـا الاسـتمرار فيـه، وكأن الله سـخر لهـا الملـك لتكـون حلقـة الوصل بين عهديـن، ثم ينقـضي ما أراده الله مـن ملكها القصـير؛ ليبدأ عـصر جديـد هـو عـصر المماليك.

ففـي اليـوم نفسـه الـذي مـات فيـه «تـوران شـاه»، اجتمـع الأمـراء المماليـك واتفـقوا عـلى تـولية «شـجر الـدر» سـلطانة عليهم، عـلى أن يكـون «عز الديـن أيبك التركـماني» فـي «الأتـابكية» ومشرفًـا عـلى العسـكر. وسـارعت «شـجر الـدر» في اسـتكمال إجـلاء الصليبيين مـن مصر، وتـسلم المـسلمون «دميـاط» يـوم الجمعة ٣ صفـر ٦٤٨هـ/ ٧ مايـو ١٢٥٠م، ورفعت عليهـا أعلام السـلطان، وارتفـع فيهـا صـوت التهليـل والتكبـير، بعد أن اسـتولى عليهـا الصليبيـون أحـد عـشر شـهرًا وتسـعة أيـام، وغـادر «لويـس التاسـع» ومـن معـه مصحوبـين باللعنـات، بذلـك انتهـت الحملـة الصليبيـة السابعـة بالفشـل الذريـع، وكذلـك انتـهت الدولـة الأيوبيـة،

وقامت دولة المماليك التي رفعت راية الجهاد مجددًا لتواصل القتال ضد أعداء الإسلام والمسلمين.

صارت شجر الدر السلطانة يوم الخميس ثاني صفر ٦٤٨ هـ/ ٦ مايو ١٢٥٠م، وألبسوها خلعة السلطنة، وقبّل الأمراء لها الأرض من وراء حجاب. وأصدرت المراسم من القلعة وعليها علامتها السلطانية (والدة خليل)، ودعا لها الخطباء على منابر القاهرة وبقية أقاليم مصر «اللهم أدم سلطان الستر الرفيع والحجاب المنيع ملكة المسلمين والدة خليل» أو «احفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصمة صاحبة الملك الصالح». ونقش اسمها على النقود بلقب «المستعصمة الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين».

لم يخل تعيين «شجر الدر» سلطانة على رأس دولة إسلامية من الصعوبات التي تواجهها، لذلك كان أداء اليمين الدستورية لـ«شجر الدر» ليس كما جرت عليه عادة السلاطين من قبل بحضور الأمراء والمشايخ والقضاة، بل اقتصر على الأمراء الذين كانوا يدينون

بالـولاء لهـا ولزوجها مـن قبل، مـع تابعيهم، وأقسـموا لها بالـولاء في غيـاب الجمهـور، وبـدلًا مـن السـير في موكب مع ركـوب الخيل في شـوارع القاهـرة إلى القلعـة للتعريف بالسـلطان الجديـد، مقدمًـا نفسـه للشـعب، فقـد تـم الاسـتغناء عـن كل هـذا؛ تفاديًا لأيـة إثارة ضد السـلطانة.

وقـد أغدقـت «شـجر الـدر» الأمـوال عـلى المماليـك البحريـة، وهـم سـيوف الدولـة التـي تدعـم ملكهـا، لإرضائهـم بشـتى الوسـائل، كـما حاولـت كسـب رضـا الشـعب، ولكنهـا كانـت أول امـرأة تتـولى ملـك مـصر في العـصر الإسـلامي، وهـو الأمـر الـذي لم يوافـق عليـه الخليفـة العبـاسي المسـتنصر بالله أبـو جعفر، وبالطبـع كبار المشـايخ والعلـماء.

قـال الشـيخ عـز الديـن بـن عبـد السـلام: «لمّـا تولّـت «شـجر الـدر» على الديـار المصرية، عملـتُ في ذلك مقامة، وذكـرتُ فيهـا، بـماذا ابتـلى الله بـه المسـلمين بولايـة امـرأة عليهـم». (بدائـع الزهـور في وقائـع الدهـور ١/ ٢٨٦).

وقـال المقريـزي في «السـلوك في معرفـة دول الملـوك» (١/ ٢/ ٣٦٨): «ووصـل الخـبر إلى بغـداد، فبعث الخليفة

المستعصم بالله من بغداد كتابًا إلى مصر، وهو يُنكِر على الأمراء، ويقولُ لهم: «إن كانت الرجال قد عدِمَت عندكم، فأعلمونا حتى نسيِّر إليكم رجلًا».

وقال شمس الدين الجزري: «وأرسل إليهم الخليفة المستعصم بالله يقول: «أعلمونا إن كان ما بقي عندكم في مصر من الرجال مَن يصلح للسلطنة، فنحن نرسل إليكم من يصلح لها! أما سمعتم في الحديث عن رسول الله ﷺ: «لا يفلح قوم ولَّوا أمرهم امرأة»، وأنكر عليهم بسبب ذلك غاية الإنكار ... فلمّا بلغ «شجر الدر» ذلك، جمعت الأمراء والقضاة، وخلعت نفسها من السلطنة برضاها، فكانت مدَّة سلطنتها بمصر ثلاثة أشهر إلا أيامًا».

وعلى الرغم من أن الخليفة كان يُكبر إنجاز «شجر الدر» كامرأة فذَّة استطاعت أن تحول هزيمة المسلمين إلى نصر مؤزر في وقت كانت فيه الدولة الأيوبية تحتضر؛ وبذلك حفظت للعروبة والإسلام عزته وكرامته؛ فإن تقاليد المجتمع المسلم كانت أقوى من أن يوافق على وجود امرأة على رأس دولة إسلامية، رغم موافقته

وإدراكـه التام للدور الـذي يمكن أن تلعبـه بجوار زوجها في إدارة شـئون الحكـم.

تكالبـت الظـروف ضـد «شـجر الـدر» عـلى الرغـم مما أبدتـه من مهـارة وحزم في إدارة شـئون الدولـة وتقربها إلى العامـة وإغداقها الأمـوال والإقطاعات على كبـار الأمراء، فكـما ثـار عليهـا الخليفـة وكبـار المشـايخ والعلـماء لاقـت أيضًـا معارضـة شـديدة داخـل البـلاد وخارجهـا، وخرج المصريـون في مظاهـرات غاضبـة تسـتنكر جلـوس امـرأة عـلى عـرش البـلاد، في الوقت نفسـه ثارت ثائـرة الأيوبيين في الشـام لمقتـل «تـوران شـاه» واغتصاب المماليـك للحكم وتنصيـب امـرأة منهـم على سـدة الحكم.

ولم يكـن مـن بـد أن تخلع «شـجر الدر» نفسـها، فأشـار القضـاة عليهـا بـأن تتـزوج أحـد أمـراء المماليك وهـو «عز الديـن أيبك» أتابك العسـكر في يوليـو ١٢٥٠م، وتنازلت لـه عـن العرش. وكانـت المـدة التـي قضتهـا سـلطانة عـلى عـرش البلاد ثمانـين يومًا، وعادت «شـجر الـدر» إلى حياة القصـور السـلطانية، وكما بـدأت حياتهـا السياسـية زوجة

ملـك، للملـك «الصالح نجم الديـن أيـوب»، أنهتها أيضًا زوجـة ملـك، للملـك «المعز عـز الديـن أيبك».

نعـم أُرغمـت «شـجر الدر»عـلى خلـع نفسـها وتعيـين سـلطان مملوكـي، لكـن هـذا لم يسـاعد عـلى حـل الصراع بـين المنافسـين السـوريين، ولم يـرض أمـراء الأيوبيـين في سـوريا بتـولي مملـوك للسـلطنة، أمـا المماليـك المصريـة فلـم يكـن لديهـم نيـة في التخلـي عـن مـا وصلـوا إليـه من سـلطة، وقـرروا ألا يتنازلـوا عـن سـلطانهم ومسـتقبلهم الجديـد، وكان لا بـد من إيجـاد حل يرضي جميـع الأطراف فبعـد خمسـة أيـام فقـط مـن سـلطنة «عـز الديـن أيبـك»، وفي محاولـة لاسـترضاء الأيوبيـين والخليفـة العبـاسي قـام المماليـك بإحضـار طفل أيـوبي لا يزيد عمره عـلى العاشرة، وهـو حفيـد الملـك الكامـل، وسـلطنوه باسـم «الملـك الأشرف مظفـر الديـن موسـى» ، وأعلـن «أيبـك» أنـه ليـس سـوى نائـب للخليفـة العبـاسي ، وأن مـصر لا تزال تابعـة للخلافة العباسـية كـما كانت من قبـل، إلا أن الحكم والأمـر كان في أيـدي سـلطان المماليـك «أيبـك».

في تلك الأثناء استفحل أمر المغول في المشرق الإسلامي، وكان على «عز الدين أيبك» أن يتخذ من الإجراءات ما لا يعوقه في المرحلة المقبلة التي يجب الإعداد فيها لحرب المغول، فقام «أيبك» بإزاحة الملك الطفل «الأشرف موسى» من السلطنة، وكان آخر من خطب له من آل أيوب بالسلطنة في مصر.

وبدلًا من الاستعانة «بشجر الدر» كنائبة للسلطان كما كانت في عهد «الصالح أيوب»، عين «عز الدين أيبك» الأمير «سيف الدين قطز» نائبًا فكان يرغب في وجود قائد صاحب سيف، الأمر الذي أغضب «شجر الدر» ورأت أنها محاولة لاستبعادها من السلطة، ومع ذلك فشواهد الأمور تشير إلى أن «شجر الدر» قد تنازلت عن الحكم والسلطان رسميًّا، إلا أنها لم تنقطع عن مشاركة زوجها مسئولية السلطنة ولعب دور في شئون الحكم، ولم تقبل على نفسها بسكن الحريم فقط. مع ذلك لم تنس «شجر الدر» أنها امرأة تحب وتغار على زوجها، فعادت للعب دور المرأة وكادت لضرتها، وأرغمت «أيبك» على هجر زوجته الأولى أم ولده

عـلي، وحرصـت عـلى ألايزورهـا هـي وابنهـا، وبلـغ مـن سـيطرتها على أمـور السـلطان أن قـال المؤرخ الكبـير «ابن تغـري بردي»: «إنهـا كانت مسـتولية على «أيبـك» في جميع أحوالـه، ليس لـه معهـا كلام».

كـما عـرف عـن شـخصية «شـجر الـدر» التـي كانـت تسـهم وتشـارك زوجهـا «الملـك الصالـح»، والتـي أدارت الأمـور بنفسـها سـلطانة عـلى مـصر، فهـي لا تـرضى بـدور الحريـم والسـكون في القـصر، لكنهـا كانـت دائمـة التدخـل في شـئون الحكـم، حتـى ضاق بهـا «عـز الدين أيبـك»، وقرر أن يجـد طريقـة لإبعادهـا وإرغامهـا عـلى الالتـزام بالحريـم، فبـدأ بإحـكام الأمـور في قبضتـه، بالتخلـص مـن منافسـيه في الداخـل ومناوئيـه مـن الأيوبيـين في الخـارج، وتمـرس بـإدارة شـئون البـلاد، ثـم كانـت خطوتـه التاليـة هي ضرب المـرأة بالمـرأة، وبـدأ في اتخـاذ خطـوات للـزواج مـن ابنـة «بـدر الديـن لؤلـؤ» صاحـب الموصـل، فعلمـت شـجر الدر بذلـك، واستشـاطت غضبًا، ولعبـت الغيرة بعقلهـا؛ فدبرت مؤامرتهـا للتخلـص مـن أيبـك؛ فأرسـلت إليـه تسـترضيه، وتتلطـف معـه، وتطلب عفـوه، فانخدع لحيلتها، واسـتجاب

لدعوتها، وذهب إلى القلعة حيث لقي حتفه هناك في ٢٣ ربيع الأول ٦٥٥هـ/ ١٠ إبريل ١٢٥٧م.

وأشاعت «شجر الدر» أن «أيبك» قد مات فجأة بالليل، ولكن مماليك أيبك لم يصدقوها وأحاطوا بالقلعة، وأخرجت «شجر الدر» من قصر السلطنة، ويذكر أن المماليك حملوا «شجر الدر» إلى زوجة «عز الدين أيبك» التي أمرت جواريها بقتلها بعد أيام قليلة، فقاموا بضربها بالقباقيب على رأسها وألقوا بها من فوق سور القلعة، ولم تدفن إلا بعد أيام عدة، فحملت إلى تربتها ودفنت بها، وهكذا انتهت حياة امرأة من نوع خاص ذات طموح ورؤية، ذات حكم وحكمة، بعد أن كانت ملء الأسماع والأبصار، وقد أثنى عليها المؤرخون المعاصرون لدولة المماليك، فيقول «ابن تغري بردي» عنها: «وكانت خيّرة دَيِّنة، رئيسة عظيمة في النفوس، ولها مآثر وأوقاف على وُجوه البِرّ، معروفة بها...».

لم تكن «شجر الدر» مجرد امرأة تولت السلطنة في القاهرة، أو أنها مملوكة نجحت في إقامة دولة المماليك، بل كانت لها جوانب مشرفة فيعرف لها أيضًا رعايتها

للعمارة والفنون، وفي هذا المجال فقد أنشأت شجر الدر ضريحين لا يزالان باقيين في القاهرة حتى اليوم، أحدهما لـ«الصالح نجم الدين أيوب» والمعروف بالقبة الصالحية بالنحاسين، والضريح الآخر بنته لنفسها بشارع الخليفة تجاه مشهد السيدة رقية.

في النهاية يمكن القول: إن «شجر الدر» على الرغم من أنها لم تكن في أي وقت من الأوقات الحاكم المستقل تمامًا والمعترف بشرعية حكمه؛ فإنها كانت صاحبة التغييرات الهيكلية في الجهاز الحاكم للدولة، وأنها شاركت فيها لمدة عشر سنوات تقريبًا، وكانت صاحبة دور فعَّال في السلطة، وسواء أكانت «شجر الدر» قد مارست السلطة بصفة رسمية أم غير رسمية، فهي امرأة غيرت في الأحداث التاريخية لمصر، وارتبطت ارتباطًا مباشرًا بعملية التغيير والانتقال من عصر الأسرة الأيوبية إلى عصر سلطنة المماليك. ولولا التقاليد والأعراف لكان لـ«شجر الدر» شأن آخر، وربما كانت من أفضل حكام مصر، وكان لها سهم كبير في إثراء الحياة السياسية والاجتماعية، وفي تقدم الفنون والآداب، وكانت فخرًا مصريًّا على مر العصور.

شكل (٢٨): رسم تخيلي للسلطانة «شجر الدر».. للرسام ويليام كلارك ونتنر، زيت على قماش (١٩٢٠)

شكل (٢٩): دينار ذهب سُك باسم «شجر الدر»

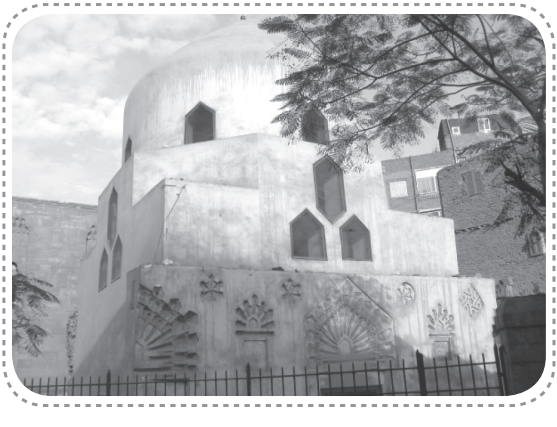

ضريح السلطانة «شجر الدر»

الموضوع

تقديم	٥
مقدمة – المرأة ومكانتها في مصر القديمة	١٧
ملكات العصر الفرعوني	٢٧
المتعبدات الإلهيات	٥٩
الملكات البطلميات	٧٥
السلطانة «شجر الدر»	١٢٣

* * *

الهيئة المصرية العامة للكتاب

المشرف على المشروعات الثقافية
مروان حماد

تصميم الغلاف
محمد البغدادي

متابعة
فريال فؤاد

المراجعة اللغوية
حسن غيضان
سيد عبد المنعم

الإخراج الفني
أحمد طه محمود

رقم الإيداع بدار الكتب ٥١٧٧/ ٢٠٢١
ISBN 978-977-91-3068-2